

بمقتسم

دكتور ابراهيم عبده



فلسفہ

الناس معادن

بقلم
الدكتور إبراهيم عبده

١٩٦٠

الناشر
مكتبة الآداب بالجاميز ت ٤٢٧٧٧
وسجل المبر ت ٤٩٩٩٩

القاهرة
مطابع دار الكتاب العربي بمصر
محمد طمى المشاوى

هذه ذكريات لا مذكرات منشورة بغير ترتيب أو حساب عن
المجتمع وناسه في نحو أربعين سنة ، حافلة بكل معادن الدنيا في
شئون السياسة والعلم والادب والفن ، وسترى بين هذه المعادن
معادن أشك أنها مرت بأى مجتمع أو عرفت فى أى زمان

ابراهيم عبده

إهداء

الى تلك التى أفزع اليها فترطب قلبى نضارتها

الى صاحبتى الخيرة التى ما أكرمتها الا وردت الجميل
مضاعفا

الى الصامته التى طوت لسانها فما نطقت بشر

الى التى انحنت على أطرافها وتشتت أعطافها تربت على رأسى
كلما دخلت فى أحضانها ، وكأنها تمسح عن قلبى ونفسى ما خلفته
المدينة من شرور وسوءات ...

الى أرضى الطيبة التى ترقد فى بطن الهرم ، وتلقانى بسامة
الشجر ، مزهرة مورقة ، وتعلمنى كلما زرتها كيف يكون السلام
بعيدا عن الدنيا من أهل وناس !

مزرعة الدكارة

سبتمبر ١٩٦٠

كان هذا الرجل أعظم الرجال عندي انه قدوتى ومثالى
انه الالهام الذى وجه حياتى ، والنبراس الذى مضيت على
أضوائه وخطوت على نوره

كان صبيا فى الثالثة عشرة من عمره حين مضى أبوه الى ربه ،
وترك له بيتا أشبه بالخصاص به (حاصل) وفرن وبغل وقيل
حمار ! ثم ترك له فيما ترك ارثا تنوء بأثقاله الصبية الصغار ،
أما ثكلتها المحنة ، وأشقة كثر دونه فى السن والادراك

ومضى الصغير اليتيم يقوم مع الفجر ويمضى الى أعماق
الريف وقد حملت بغلة أييه قماشاً زاهى الألوان ازدهم به خرج
البغلة وتدلّى على جانبيها فى رفق ونظام

سنوات والفتى الصغير يمضى مع فجر كل يوم من مدينة بنها
الى ريفها العميق ، شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، ثم يعود مع
الليل وقد خوى الخرج مما فيه

بقى جهاد ذلك الصبى على هذا الغرار حتى شب عن الطوق ،
ويسر الله له من الرزق الحلال ما أحال عرقه الى ذهب وفضة ،
فاستقر فى المدينة الجميلة وأصبح له فيها متجر كبير

كان هذا الرجل نظيف الذمة صادق الوعد ، وما استقامت أمور
التاجر ان لم يكن رأساله أماته وصدقه هكذا قالت

الانبياء منذ قديم ، قالتها في الناس وفي الرسل ، فالتجارة مهنة لا يصيب فيها الا صادق أمين .

واشتهر الرجل بسماحته وقلبه الكبير ، كان يمسح عن الصحب والاهل منازل بهم من بلاء وأرزاء ، ويصبر في الحياة على كل ما في الحياة من عقد وعنت وضيق ، ويسوسها في هوادة القادر على حل العقد وتدير الامور

القد راقني في الرجل كل هذا ، وحاولت أن أكونه ، وأحقق لطبعي من طبعه قدرا أو اواجه به الدنيا كما واجهها ، وأبلغ به ما بلغه هو من التوفيق والسداد

لا يعني في سيرة هذا الرجل - أعظم الرجال عندي - أنه أثرى وملك أعظم رتب زمانه ، وتجاوز صيته الشرق والغرب ، فكل ذلك دهان الحياة وطلاؤها ، وليس فيه من معادن الرجال شيء يقوى على الزمن أو يسيطر عليه

ان أعظم الرجال عندي ، كان مجاهدا في وطنه وأهله وصحبه ، وكان فقيرا ذا عيال ومسئوليات ، فلم يقفه الفقر عن السعي الحثيث ، ولا عرف في المسئوليات الفرق والخوف ، ولا الاستند في كفاحه الى بيت قديم أو اسم كبير الأب أو عم أو خال ، ولا غرته الدنيا حين أقبلت عليه بغير حساب ، ولا حبس عن انسان يدا استطاعها ، ولا شاقته في الرزق الواسع متعة من تلك المتع الصغيرة التي تلفتنا عن واجبات الرجولية والتزامات الرجال

لقد عاش — أعظم الرجال عندى — متفانياً فى عمله وهى أجمل
الخلائق فيه ، مؤمناً بطيره ، مؤدياً واجباته نحو دنياه وآخرته ،
لم تؤثر عنه خلة تشكى أو صغيرة تروى ، أو غلطة تحسب عليه
انه سيرة فى (بنها) يتناقلها الناس كأنها العطر والطيب ، وانى
لأنصت اليها وفى عينى دموع الفرح والاعتزاز بالسيرة التى
مضى صاحبها ولكل بنهى فيها حق ونصيب

ان لى — بأعظم الرجال عندى — صلة ونسباً ، انه أبى
أبى الذى مات عنى وأنا جنين لم أعرف الدنيا ، فلما عرفتها ،
عرفت فيها أبى ، فجعلته قدوتى ومثالى ، واجاهدت ولا أزال
أجاهد لاكون بعضه ، فانه معدن نادر بين معادن الرجال ،
وهيئات أن نكوئه ! وقد صنع نفسه ، ونحن قد عشنا — الى
مدى بعيد — على سيرته ، وتعلقنا بأذيالها ، ولا نزال نحيا فيها
كلما تحزب الامر أو ضاقت بنا السبل

كان خالي يعبل مهندسا للرى ، وكان يتيه في شبرا البلد ،
وكان سيد شطا المطرب ، صديقه الحميم ، لا يفترقان الا حين
يجرى خالى على الجسور وخاصة وقت الفيضان ، او يدعى
سيد شطا الى احياء فرح او يقوم بالغناء في روض الفرج .

وكانت أمى تعيش مع خالى الذى كانت طرائقه في تناول
الحياة أشبه بطرائق العصور الوسطى . . . ليس هناك حساب
معلوم للطعام ، فالبيت يعج بخصاص (عيش) الطيور
وكل يوم يذبح منها (طورة) أو طورتان حسب الظروف بجانب
أرطال من اللحم لا يعرف لها حساب ! فأن البيت مفتوح لكل
قادم أو عابر سبيل ، والجزار على الباب ورطل اللحم بقرشين ،
أو ثلاثة قروش ان (شفوه) من (الشغت) والعظام ! . . .

وكان خالى رجلا كريما ، لم يكن يبخل على أمى بأحسن ما
يملك من طعام وكساء ، فهمى التى ربته وجعلت منه مهندسا
تفاخر به الدنيا ! وكان هو يوقرها توقيرا عجيبا ، اذ كان يصيبه
الخرج ان رأت في يده سيجارة يدخنها ، وكان يقف حين تقبل
عليه ، وكان يقبل في الصبح يديها ظهرا وبطنا ، ورأيتها مرة
غاضبة ، ورأيتها تصفحه على صدغه الايمن فيدير لها صدغه
الايسر .

رأيت المسيح في خالى . . . وفرجت أن هذه أمى ، فقد كانت

لى حباية حين أخطىء أو أحيل البيت الى صخب وفوضى ، فقد كنت مدللا لانى وحيد أمى ، خرجت بى من الدنيا قريرة العين ، فكل شىء راح منها وبقى لها خالى يرعاها وأنا أسعدها وأملأ عليها فراغ الحياة

لقد كنت فى حياة أمى كل شىء فى حياتها جئت الى الدنيا بعد أن فقدت أبى وكان لها سندا وصيتا وأبهة ، وجئت بعد أن مات لها أكثر من ولد .

ومع أن أمى نبت علم وفقه ، اذ كان أبوها أديبا يقرض الشعر عربيا وفرنسيا ، وكان عمها كأبيها حسا وفهما وأدرى منه بالدين والفقه ، فانها كانت لا تقرأ ولا تكتب ، لذلك آمنت بالاحاجى والتعاويد ، فبقيت سنوات وخصلة من شغرى تلتصق بها خرزة زرقاء ، وصدرى يتدلى منه حجاب !

وكانت أمى ترعانى مشدودة الاعصاب ، فقد تركت فى قدمى خلخالا ذا جلاجل من ذهب حتى اذا غبت عن عينيها نبهها الخلخال وبصرها بمكانى فتخف التى فى جزع المأهوف ولهفة الأم العطوف . . . وكان جسمى ضئيلا ، وكل أمراض الطفولة عرفت طريقها الى هذا الجسم الضئيل ، وكان أكبر أطباء الاطفال فى زمانه يرعانى ويطب لى ، ولم تقنع أمى بطبه ونصائحه ، بل أصغت بالموودة الى توجيهات القريبات والناصحات ، فكنت اذا استجملت حمزتنى فى خجرة النوم يوما حتى لا أصاب بالبرد ! واذا عطست

لا يدخل بيتنا البيض والسّمك !! وكانت تدفع الى يطنى بالموغات
والمفتقة والحلبة حتى (ترم) جسمى الضعيف ، بجانب ما أوصى
به الطبيب من مقويات ، وهى (مستحلب سكوت) صيفا وزيت
السّمك شتاء

ورثت أمى المرأة (لحاسة) تمر ببيوت الذوات (تلحس)
أطفالهم مادة هى خليط من الطحينة والعسل الاسود والبن وأشياء
أخرى ، تغمس فيها السبابة والوسطى من أصابعها وتدفع بهما
الى حلقى ، وتمر بهما على هذا الحلق ضاغطة حتى أكاد أقيء أو
أختنق .

وقيل أن التلحيس خير وقاية لأمراض الحلق ، وقيل أنه وقاية
من الالتهاب السحائى ، وقيلت أشياء أخرى لا أدرى الصحيح
منها وأن كانت أمى قد آمنت بها إيمانا .

وكلما سمعت أمى (وصفة) تزيد الوزن وتجرى الدم فى
الوجه عملت اليها من أجلى ، وأقبح ما سمعت من وصفات
(حلاوة بلادنا) وهى مادة من ثفل السمسم يسمونها (الكسبة)
كريمة الرائحة مرة المذاق ، كانت تأمر بشرائها من عربة يد تمر
ببيتنا وقد وضع البائع (حلاوة بلادنا) على شكل هرمى
جميل

ان أسماء الاضداد فى مصر شىء عجيب .. ان بلادنا لم
تنتج مرا وعلقما مثلما أنتجت حلاوة بلادنا !!

ولما اكملت دراستي في الكتاب وانتقلت الى المدارس الابتدائية، كنت أقرأ الصحف وروايات طرزان ومجلة الأولاد، وأراجع كل مطبوع ألف به البقال شيئاً لبيتنا، والحق أن خالي كان يفرح لهذا كل الفرحة، وما كانت فرحة خالي لأنى قارئ قد تفيده القراءة، بل كانت فرحته لأنى سأشغل عن الضجيج والضخب وسيهدأ البيت من (شقاوتى) التى تحيله عادة الى جهنم بما فيها من صراخ وفوضى وغويل .

كان ذلك كله سنة ١٩٢٥

وكنت أذهب الى سينما أولمبيا فى شارع عبد العزيز أو الى سينما المنظر الجميل فى الظاهر يوم الخميس من كل أسبوع، وكان هذا شيئاً ادّأ لا يسيغه خالى فى شبرا البلد ولا أهلى فى بنها العسل، وكانت أمى تعجب لأمرى . . كيف أطيع الذهاب الى السينما أكثر من مرة فى حياتى؟ ولم يقنعها أن تعلم أن روايات السينما تتغير أو أن فيها حلقات كل أسبوع حلقة وأن (ماشيست) رواية طويلة وزع عرضها على أكثر من أسبوع ! .

لم تكن أمى متزمتة تزمت خالى وأهلى، ولكنها كانت تخشى شيئاً واحداً . . . أن تسيء السينما الى عيني، بيد أنها كانت تعالج الامر بحصافتها فتضع فى عيني بعد عودتى من السينما (ششم الديك) ليجلوها ويمسح عنهما ما خلفته السينما من متاعب !

والصحيح أن أمي كانت حسيّفة ، فقد كانت السينما تهز أعصاب العيون في ذلك الزمان ، لأن الصور حين كانت تتحرك على الشاشة كانت تهتز اهتزازاً غنياً ، وخاصة في روايات شارلي شابلن ، وكان سيد الموقف في دور السينما في جميع أنحاء العالم ، وكانت عيوننا تصاب بحرقان بعد كل عرض ، وكان ششم الديك علاجاً بديعاً للعيون مهتماً تكن فيه من نار ...

وقد أغريت أمي أن تذهب معي الى السينما مرة ، ووافقت بعد الحاح شديد ، وقرأت عند مدخل الباب الفاتحة وبعض آيات أخرى من القرآن الكريم ، ودعّيت لي بالعمر الطويل والخير الوفير ، فقد علموها أن الله سبحانه وتعالى يستجيب عادة للدعوات عند زيارة عبيده لاي مكان جديد !

وخرجنا من السينما وأمي أشد وثوقاً بعقيدتها في عقلى القارغ الذى يحتمل الذهاب الى السينما مرة كل أسبوع !

لقد عرفت بين أهلى بأنى ولد تلقان ، مدلل ، خسران ، لائى أغشى السينمات وأذهب اليها علانية بلا حرج أو خجل أو خوف ذلك لان السينما تفسد الخلق وتضيع الوقت ، وأنا تلميذ مهياً للحصول على الشهادة الابتدائية ، وكانوا يقولون اننى لن أفلح مادمت من رواد السينما ! وكيف يستقيم النجاح فى الشهادة الابتدائية والذهاب الى السينما كل أسبوع ؟!

ولكننى نجحت فى الشهادة الابتدائية ، وكان نجاحى يتفوق ،

وزغردت حرم خالى ، ووزع زوجها الشربات على أولاده السبعة
وعلى الجيران والجزار والبقال ، وجاء سيد شطا وغنى وسمح
لى أنا وأولاد خالى السبعة بالبقاء معظم الوقت فى الحجرة التى
كان يغنى فيها سيد شطا احتفالا بنجاحى

وأعطتنى أمى واحدا وخمسين قرشا ، القرش لاركب به ترام
رقم ٨ ذهابا وعودة ، والخمسين قرشا لاشترى بها (ملابس)
لأولاد خالى وأبناء الجيران اعترافا بجميل فرحتهم لنجاحى ،
واشتريت الملابس ، وبدأت أنظر إليه بحسرة ! ..

وكعادتى أخرجت نفسى من صدرى ، وتناقشنا ، أأست أنا
الوسيلة التى من أجلها جاء هذا الملابس ؟ أأست أنا الذى نجح
فى الشهادة الابتدائية ؟ أليس من العدل أن يعترف لى بجميل
الفرحة التى عمت الجميع ؟ فإذا كان هذا صحيحا وهو صحيح ،
أليس من العدل أن يكون لى فى هذا الملابس نصيب بل أوفى
نصيب ؟

وأعدت نفسى الى صدرى حين تم التفاهم بيننا ، وبدأت
أتسلى بالملبس واحدة بعد الأخرى ، حتى إذا بلغت البيت كنت
قد أتيت على معظمه ! ..

وغضبت أمى ، وساء الجميع تصرفى الا سيد شطا فقد كان
فنانا ، وكل فنان منطق ، لذلك أعجبه منطقى وبارك فعلتى ،
وقال بالهناء والشفاء ... وغناها على العود مع بعض الكلام

الفارغ الذى لا أذكره ، وانما أذكر أنه أحال ضيق الجميع الى جو من السرور والحبور .

إذا كان نجاحى فى الشهادة الابتدائية شيئا عظيما فى أسرتنا سنة ١٩٢٥ ، فمرجع ذلك أن أهل بيتنا فى بنها العسل ، وأهل أمى فى القاهرة ، لم يعتادوا أن يشغلوا بالهم بالعلم الا أخيرا حين ضاعت الثروة الضخمة الخيالية التى تركها أبى النسا ، وضاعت ثروة أمى فى القاهرة أيضا ، وأصبح تعليم أبناء الاسرة هو الوسيلة الوحيدة لمواجهة الحياة والسيطرة عليها ، فاذا حصل واحد من أسرتنا على الشهادة ، أية شهادة ، كان ذلك حدثا عظيما ، وقد استمر الايمان بالتعليم فى أسرتنا يقوى على مدى الزمن حتى أصبحت القاعدة فيها الآن تعليم بنيتها وبناتها الى أرفع درجات التعليم .

فى أسرتنا اليوم نحو مائة رجل وامرأة ، أنا عمهم أو خالهم ، وكلهم أهل علم ، ومنهم كثيرون يحملون درجة الدكتوراه فى العلوم والآداب والطب ، ومنهم علماء كتبهم وآراؤهم مرجع فى هذه الميادين

اننا أبناء رجل عاش مجاهدا .

لقد فرح بنجاحى كثيرون من غير أهلى ، فرحت به أسرة الشاهد ، أولاد لبيب (باشا) الشاهد ، محمود وصلاح الشاهد ، أعز من عرفت من أصحاب ، وأكرم من صاحبت من الناس ،

أصدقاء العمر من سنة ١٩٣٢ فى مدينة الخرطوم ، الصاحبان اللذان صيغا من ذهب ، وبقيت مودتهما لى وسط الانواء والاعاصير ، وكبرت تقساها على الانواء والاعاصير ...

حقا رب أخ لم تلده أمى !

كنا فى الخرطوم لا تفرق ، وذات يوم ألفت — وأنا صبى — قصة مثلناها على مسرح أقمناه فى بيت الشاهد ، ولقينا من أب الصاحبين تشجيعا ما بعده تشجيع ، لم يقتصر هذا التشجيع على أنه أذن لنا بإقامة مسرح فى بيته ، بل أنه كضابط عظيم فى الخرطوم بذل نفوذه ليحضرنا سائر الضباط ونحن نمثل . ومنذ ذلك التاريخ ونحن نمثل القصة التى ألفتها فى ساعة الهام ، ولم يقف دون أى واحد منا فى أداء دوره إلا الموت ، وما أبغض الموت حين يدق باب من جمعتهم آصرة أقوى من أواصر النسب والدم ! ..

كنت فى الرواية أستاذًا فى مدرسة العلمين العليا ... وبعد ثلاثين سنة كنت أستاذًا فى جامعة القاهرة ! ..

وكان محمود الشاهد يمثل دور طبيب أسنان ، ومات الصديق الحبيب وهو من أكبر وأعظم أطباء الأسنان فى مصر ...

.. ومثل صلاح الشاهد دور أبناء الذوات وكان وسيما أنيقا لا يسير الا بحساب وفرض عليه الدور أن يكون باسم السن حلو الكلام ، مو اتيا، مخلصا لمن يلقى من الناس رؤساء ومرءوسين،

وبعد ثلاثين عاما كان صلاح الشاهد تشريفاتى رئاسة مجلس الوزراء ؟! ..

ومثل ثلاثة من زملاء النصية أدوارهم التى شغلوها بعد ثلاثين عاما ، وكأنى كنت أكشف عن الغيب ، فقد أصبح وأحد منهم مدرسا فى الدولة ، وثانيهم موظفا فى السكة الحديد ، وثالثهم مفتش أتوبيس ؟! ..

كانت هذه وظائفهم على مسرح الشاهد فى الخرطوم سنة ١٩٢٣ وكانت هى وظائفهم على مسرح الحياة سنة ١٩٥٢ .

لقد فرح محمود وصلاح بنجاحى فى الشهادة الابتدائية ، فهى علامة على أن الحساب يبدو دقيقا ، فإن بعد الابتدائية شهادة الكفاءة ، وبعد هذه الشهادة البكالوريا ، ثم المعلمين العليا ، فإذا صحت النجوم معى فما يمنعها أن تصدق أيضا مع الصديقين الخبيين ؟

كان يوم نجاحى خيرا ، الا أن الأيام التالية كانت ذات أمر ! ...

ماذا بعد الشهادة الابتدائية ؟

وانعقد اجماع الاسرة على الحاقى بمعهد هو أطف المعاهد وأخفها ... مدرسة التلغراف ! ... ستة شهور التعلم المهنة ، ومن ثم الوظيفة حاضرة وجنيهاتها الستة راتب مرموق فى ذلك الزمان !

رحب بذلك أهلى فى الريف والحاضرة ، فتلک مدرسة بلا
تكاليف ، ورحبت أمى بالمدرسة ترحيباً قوياً ، فهى تريد أن ترانى
موظفاً فى الحكومة والى جانبى زوجة وأولاد ، وهى أمنية تـرجو
أن تتحقق لها قبل أن تموت

وما كان يعنينى اقناع الأهل بما رسمه القدر لى وآمنت أنا
به ، إنما كان يعنينى أن تصغى الى أمى ، فقد حدثتها بأمانى فى
الحياة فبكت لان تحقيق الامانى يحتاج الى مال ، وحدثتها أن
سنى لا تسمح بالزواج أو انجاب العيال ، فبكت لانها تخشى أن
تموت قبل أن أكون زوجاً وصاحب عيال !

وقالت أمى تغرينى بمدرسة التلغراف وما فى أعقابها من
خيرات : قالت ان قلبها يخفق كلما نظرت من النافذة الى جارتنا
محمد افندى الموظف بالمعارف وهو عائد من وظيفته فى حراسة
القيظ يستظل بالشمسية ويحمل فى جيبه الايسر جريدة الاهرام ،
ويحتضن الى صدره بطيخة تملأ قلوب أولاده فرحة وهم يخفون
اليه ليحملوها عنه سعداء مقرورى العيون ؟ !

كانت أمى تتعجل الزوجة التى تنهج نهجها مع أبى ، تقوم على
خدمتى وترعانى كأننى طفل دلوه ، كانت تريد أن تراها يقضى
مع الفجر تميل على يدى تقبلها ثم تجرى الى الحمام فتحمل
الطشيط والايريق لا توضأ أو أغتسل ، ثم تقف الى طعامى تزققنى ،
ثم تودعنى الى عملى بالكلمة الحلوة داعية ربها أن يجعل لى فى
كل خطوة سلاماً .

ثم تقول أمى معتزة بما تقول : كنت اصنع هذا لاييك ، وكان أبوك رجلا مهذبا لا يترك البيت الا بعد أن يقبل يدى كأنه يشكرنى أو يعترف بالجميل ! ...

وأخذت أنا والشقيقان محمود وصلاح الشاهد تتلق أمى وتترضاها ونزعم أنها زينة الشباب ، وأنها فى نضرة الحسان تزرى بجمال ألف بنت من بنات اليوم وأن ذلك كله ينبىء عن طول العمر ، حتى نصرفها عن هذا الطائف الثقيل الذى يلح عليها أن تزوج ولدها الوحيد قبل أن تموت ! ...

وبكت أمى مرة ثالثة لأنها مدعورة من أفكارى وأحلامى التى سيطرت على قلبى ونفسى وعقلى جميعا ... أن أتعلم حتى أصبح أستاذا فى مدرسة المعلمين .. وأين من هذه العنقاء وأنا لا أملك تكاليف المدارس ولا كساءها ولا التزاماتها الكثار

وقال الصديقان محمود وصلاح : ماذا لو قابلت وزير المعارف ، فانك لقادر على أن تنتزع منه قرارا بأن يلحقك بأية مدرسة تجهيزية ؟ ...

نحن فى صيف ١٩٢٥ والحكومة تضطاف فى الاسكندرية اذ تكون الحكومة عادة حيث يكون الملك ، والملك فؤاد يبكر فى الاصطيف ويستأخر فى العودة حتى يكاد الخريف أن ينصرم ، وهذه عقبة الأصحاب الحاجات عند الوزراء والوزارات ، وحاجتى ملحة والمجانبة لا تشفع فيها الكفاية أو

الامتياز وحدهما بل لابد أن يسعى الطالب وهو عادة ولى أمر التلميذ الى هنا وهناك ، يبذل ماء الوجه قارة أو يدفع من جيبه قارة أخرى أو يدفع شيئاً أغلى من هذا وذاك ؟ ! ...

وكان المفروض أن التعليم حسب نص الدستور حق لكل مواطن ، الا أن الواقع كان غير ذلك ، اذ أن هذا الحق كان للأغنياء وحدهم ، والمجانبة تمنح بالسعى على النحو الذى أشرت اليه .

ولم يكن لى ولى أمر يسعى هذا السعى أو ذاك ، فكان لابد من أن اعتمد على نفسه ، ولم أكن قد زرت الاسكندرية ولا أعرف الطريق اليها ، ولم يكن جرمى وهو دقيق كالطيف ولا ملبسى وهو البنطلون القصير يوحيان بمقدرة تنتزع المجانية من وزير ...

وضربت فى الأرض حتى بلغت محطة القاهرة آخر الليل لاركب (المستعجلة) الى الاسكندرية ، وهو قطار سخرها من بطشه فنعتوه هذا النعت ، اذ أنه يقطع المسافة بين العاصمتين فى سبع ساعات وغيره يقطعها فى ثلاث ! ...

وركبت المستعجلة فى الدرجة الثالثة ، وبلغت الاسكندرية مع الصبح ، وسألت عن بولسكللى حيث ينزل الوزراء ، وكان حى الوزارات فى بولسكللى مكانا ضيقا ، قال كل وزير فيه حجرتين ، حجرة له وحجرة لرجال مكتبه ، وكنت قد تزودت بأوراق رسمية تثبت أننى ابن رجل بنى المدارس وأهداها للدولة ، وأن من حقى

على هذه الدولة أن تعلمنى ، واننى جئت للوزير غير متسول ،
بل أقبلت عليه اقبال صاحب الحق

وكان سكرتير الوزير شابا لطيفا غير أنه حرقى - وهو اليوم
مستشار كبير - أبى أن يدخلنى الى الوزير ، غير أننى أصررت
على لقاءه ، فلما أذن لى بالدخول بكيت ولا أدرى لماذا بكيت وأنا
مقتنع بأنى صاحب حق ، حق أبى على الدولة ، وحق تفوقى فى
الشهادة الابتدائية وحق المواطن العادى الذى كان يظن أن فى مصر
دستورا يبيح للمصريين أن يتعلموا .

وكان لقاء الوزير حلوا ، وخرجت من عنده أحمل توقيعها
يسمح لى أن أتعلم بالمجان فى المدرسة الخديوية .

أتممت دراستي الثانوية في جو اجتماعي وسياسي لم يكن لي به عهد ، فأنا تلميذ في سنة أولى سسادس بين ثمانية وعشرين تلميذا ، منهم خمسة من أبناء الباشاوات وأربعة عشر آخرون من أبناء البيكوات ...

كان فصلا مختارا حسب تقاليد العصر وطقوسه ...

ومع ذلك اشتهر فصلنا بأنه دون الفصول أدبا وتأدبا ، وكنا مكرمة ملاعين وخاصة مع الدكتور سرفيه أستاذ اللغة الفرنسية ، وأستاذي اللغة العربية والدين ..

وقد كان ضرب التلاميذ وسبهم ممنوعا على الاساتذة والمعلمين ، ولكن فعالنا أباحت لكل معلم أن يضربنا ويسب آباءنا ويقسرنهم بالكلاب والحمير ! ... وكان من بين زملائي ابن وزير المعارف زكي (باشا) أبو السعود وابن عبد القادر (باشا) الجمال كبير تجار القاهرة ، وغيرهما من أبناء السادة الذين يشار إليهم كلما ذكر اسمهم بين أعلام المصريين ...

وكنا نفتن في الوقاحة وسوء الأدب !

كنا نحشر أسنان الريش في أدراج مكاتبنا ونهزها فتجىء لها

أصوات تهز أعصاب المدرسين ، كما كنا نطن طنين الذباب جماعات وأفراد ، وقد ارتكبت هذه الفعلة السيئة في درس الدكتور سرفيه ، وتساءل الرجل ساخرا : أين الشجاع الذي تجسول الى ذبابة ؟ ! ودون أن أدري أجبت ... أنا ! ... فصافحني الرجل وأكبر شجاعتي ومنحني أعلى درجات الاخلاق في كراسته ! •

وتساءل جاري في الفصل — ولا أذكر من اسمه الا الطحاوي — وكان جاهلا باللغة الفرنسية لا يعرف فيها حرفا ، سألتني عن التحية وأسبابها وعما كتبه الاستاذ في كراسته ، فلما ذكرت له جزاء شجاعتي قلدني فورا ، غير أن الدكتور سرفيه منحه صفرا في الاخلاق وأوصى بحبسه ثلاث ساعات ؟ ! ...

وكان فصلنا أيضا فصلا ممتازا بالكفايات المبكرة وأصحاب المواهب اللامحين ، وأذكر أن نتائج الامتحان أثبتت أن المكرة الملاعين كانوا قدوة لسائر فصول السنة في التفوق والتبريز في شتى العلوم ...

وكنت مع سبعين تلميذا في القسم الداخلي ، لم تمض أيام حتى اجتمعت لنا صحبة لم تنقسم عروتها منذ سنة ١٩٢٥ الى اليوم ، ولا يزال الحب الذي جمعنا يسيطر على قلوبنا وصدورنا ، ومن بين الاصحاب الذين ما تقطعت حبال مودتهم قط حسن محمود العضو المنتدب لشركة مصر للطيران والدكتور محمد أحمد سليم

المهندس العالمى المعروف والدكتور محمد على هدايت أستاذ
الجراحة بالجامعة ، وأبو بكر نور الدين الاقتصادى المعروف وكما
نسميه الصديق ، فقد كان - ولا يزال - على رأس النخبة
المنتقاة والصفوة المرتجاة ممن أثرت عنهم الفضائل وتعطرت سيرتهم
بأجل الشمائل

وانا نجتمع اليوم وصفاء القلوب كصفوها يوم التقينا بسراويلنا
القصيرة سنة ١٩٢٥

والمدرسة الخديوية لا تزال تعيش فى عين الزمن ، لا يبنائها
القديم أو الحديث ، بل بهذه الشخصيات التى تملأ فراغ الدنيا
بكل صالح ومفيد

وكان جوا اجتماعيا غريبا ذلك الذى خلقه فى المدرسة أول
ناظر مصرى لها ، وكانت القاعدة منذ قديم أن يكون ناظرها من
الانجليز ..

وقد التحقنا بالمدرسة الخديوية على أول عهدنا بناظرها
المصرى محمد البيب الكردانى ، وكان فخمنا ضخما جمهورى الصوت
أنيقا رقيقا ، وقد بدأ يعلمنا كيف نأكل بالشوكة والسكين ،
ويشعرنا أننا أسرة واحدة ، يراقب طعامنا ودراستنا ، وينظم
أمورنا كأننا بعض والده ، وكنا نخافه ونخشاه ، كما كنا نحبه
ونسعى الى رضاه .

وكانت مصر تعيش فى تلك الفترة فى قلق سياسى عجيب ، وكان

كل تلميذ منا يمارس السياسة ويشغل وقته بها ، وكنا نخرج في المظاهرات هاتفين الدستور وسنجد زغلول بوحى من عواطفنا دون تفكير أو تدبير ، وبعد موت سعد اختلفنا فى الرأى وان لم يؤثر ذلك على مؤدتنا فى قليل أو كثير .

لقد كان حبنا لمصر كبيرا ، وكانت قلوبنا لا تعرف الا كل احساس جميل

ومضيت أنا مستغلا الانوار المضاءة فى غير النوم بحكم القانون ، أقرأ وزملائى نيام ، فقرأت المنفلوطى وطه حسين وعباس العقاد وقاسم أمين ، كما كنت أقرأ الصحف كالأهرام والبلاغ والعلم والسياسة الاسبوعية والبلاغ الاسبوعى وغير ذلك من كل منشور عميق ، وبدا أثر ذلك واضحا فى كراسة الانشاء العربى فقد كنت أنال فى كل موضوع انشائى الدرجة النهائية ، أى عشرة من عشرة . . وان كان الاستاذ يصر على تسجيل تخفيض يتراوح من درجة الى ثلاث درجات لقلة أدبى أثناء الدرس أو لاتيانى بفعل ذميم !! . . .

وبدا أثر ذلك واضحا أيضا حين تقرر أن يكون أعضاء لجنة مجلة المدرسة من ذوى الكفايات بعد امتحان فى التحرير عسير ، وتقدمت فيمن تقدم وكان ترتيبى الاول غير أنهم رجعوا عن قرارهم ونحونى عن الرئاسة والعضوية وقصروهما على تلاميذ السنة الخامسة ، والهم وحدهم الصدارة فى كل أمر وتدير . . .

امتلات غيظا وحنقا ، وأخذت أطالب بتطبيق دستور البلاد في كل أمر صغير أو كبير ! وانه لابد أن يكون رئيس القسم الداخلى منتخبا ، وأن تكون كل لجنة في المدرسة من وحي الانتخاب أو بناء على امتحان يثبت جدارة من هو بالحق جدير .

وتألف رأى عام قوى بين الزملاء يؤيد رأىى ويجاهد من أجله ، وعاقبتنى المدرسة بأن طردتنى من القسم الداخلى ، فلذا وجدت أن آرائى قد انتقلت الى القسم الخارجى تقرر نقلى الى مدرسة أخرى

وقابلت الناظر وناقشته وكان - كما قلت - أبا رحيم مستريح الصدر كبير القلب ، فراقه منطقى الذى دعا الى المواءمة بين سلطان المدرسة والحقوق المرجوة التى تضطرم بها نفوس التلاميذ ، فكان للناظر حق تعيين رئيس القسم الداخلى وللطلبة انتخاب السكرتير ، وكان للمدرسة حق تعيين رئيس تحرير المجلة وللإمتحان حق تعيين أعضائها مهما تكن أسنانهم ، ومهما يكن مقامهم فى سنوات التحصيل !

وعدت الى المدرسة ، والى القسم الداخلى ، وعدت الى الصحاب الذين ما شعرت قط أن لاحد فى نفسى مقاما يعلو مقامهم رغم الظروف وكر السنين

وفى تلك الاثناء مسنى هذا الملك الرفيق الخالد الذى يسمونه الحب ، وأذكر أن حيائى منعنى حتى من أن أذكر الصاحب شيئا

عن هذا الذي ينساب في قلبي وحسى ، وبقي هذا الحب رفيقا ،
صادقا ، عميقا الى أيام الدراسة في الجامعة

كلما عدت الى تلك الايام فجعنى مافيه جيل اليوم من قذارة ،
الحب اليوم تجارة ، أخذ وعطاء ، مناقصات وممارسات ...

كان الاحساس بالحب في جيلنا أشبه بالورود الناضرة.
والرياحين الباسمة ، كان حقيقة جميلة من حقائق الحياة ، كانت
عروق المحبة أصيلة فينا ، لا يقتصر الاحساس فيها على أنفسنا
بل كنا نحب كل شيء حولنا ... كنا نحب الناظر والاساتذة
وسعاة المدرسة وكانوا يحبوننا كما نحبهم

وانها للوحة رائعة لا تغيب عن ناظري أبدا . . . أبو سريع
ساعى (اليمكخانة) حيث كنا تتناول وجبات الطعام ... واقف
يزققنا كأنا دجاج في أحضان فرخ كبير !!! ..

من الى بتلك الأيام ؟ من لى بمن يرد قلبي الى صفائه القديم ،
وينزع عنه كل ماتركته الحياة من رواسب الاسى والشك والحزن
العميق ؟

كانت السنوات الخمس التى قضيتها في المدرسة الخديوية من
أحلى أيام الجهاد ، كنا فيها تلاميذ مجدين ، وخلقنا فينا حيوات
نادرة وفطرت أخلاقنا على السماحة ، فقد كنا نختلف طرائق في
النظر للناس والاشياء ، ومع ذلك كنا نسمو ونضحك من أعماقنا ،
فلم يعرف الحق أو الكراهية منفذا الى قلوبنا ، وكنا نقرأ

روز اليوسف والكشكول ، وما أكثر ما قرأنا فيهما من عبارات تند عن الذوق ، وخاصة الكشكول خصم سعد زغلول ، فقد كان ثروة في البذاءة ، لفظا وتعبيرا ، ومع ذلك لم تجر على ألسنتنا يوما كلمة من هذا المحصول الكبير

ان المدرسة الخديوية علمتنا الادب ، التحقنا بها فكان المعلمون من فرط وقاحتنا وسوء تديرنا يسبون آباءنا في طمأنينة المطمئن الى أن هذا السب هو دون ما نستحق من تأديب ، وكان بيننا ابن رئيس وزارة وآخر أبوه وزير ! ثم مضت بنا السنوات فكسبنا في سنتين أو ثلاث من الخصال الطيبة ألوانا حتى بدونا والرجولية طبعنا ، فلم نكذب قط ، وبقينا الى اليوم لا نعرف الكذب حتى أبيضه تتحاشاه ، ولم نخف قط ولو تطلبت الحياة منا الخوف حرصا على الوظيفة أو قوت العيال

علمتنا المدرسة الخديوية كيف نعتز بكرامتنا ونرفع رءوسنا دائما ، وعلمتنا حب الدرس وحب الحياة ، وثأت بنا عن الخسة ودناءة الطبع ، واني لأسجل والفخر يملأ صدرى وقلبى أن جميع من عرفت من أبناء مدرستى لا يزالون الى اليوم في صدر الحياة ، سواء منهم من سار في زفتها أو اختار جوانب الطريق وخاف الزحمة وما فيها من تكالب واندفاع ! ...

أليس عجيبا أن نختلف في أفكارنا وآرائنا ونبدو للناس طرائق منذ خمس أو ثلاثين سنة ولا تستطيع قوى الزمن أن تفرق بيننا

أو نخدش مودتنا وكأن صحبة الخديوية أقوى من وشائج القربى
وصلات الدم ؟

ثم علمتنا المدرسة الخديوية النظام ، النظام الذى لا تزال
حاجة شعبنا اليه كبيرة ، فقد كنا نستيقظ فى ساعة معلومة ،
وتتناول وجبات الطعام فى أوقات رتيبة ، ونلهو فى ساعات محددة ،
ونستذكر دروسنا حسب قواعد مرسومة ، ومنذ ذلك التاريخ
وأنا أعيش فى أضواء هذا النظام

ومن الزملاء النابيين الذين عرفتهم "لتوأم مصطفى وعلى أمين

كان مصطفى أمين زميلى فى لجنة المجلة ، وكان نادر الوجود
فى اجتماعات اللجنة ، لأنه أصلا كان نادر الوجود فى المدرسة !
وكنت اذ ذاك فى السنة النهائية وكان هو فى السنة الثالثة ، غير
أنه كان جديرا بعضوية اللجنة لما اشتهر به من صلات بالصحافة
ورجال السياسة ، وخاصة سعد زغلول ، حيث تربطه بهذا
الزعيم قرابة ما

وفرض مقتضى الحال أن يكون الكل اعضاء فى اللجنة مقال فى
المجلة سواء باللغة العربية أو بلغة أجنبية ، حتى لا يقول الناس ان
فى أعضاء اللجنة من لا يحسن الكتابة ، وكان المشرف على المجلة
أستاذنا قناها شاعرا فائرا ، وكان ناضج الراى عميق الفكر لا يعجبه

العجب ولا الصيام في رجب وكم من مقال كتبناه وألقاه في
سلة المهملات ! ..

فماذا يصنع الماكر العريض مصطفى أمين ليكون له في المجلة
مقال ؟

ان مصطفى أمين والشيخ عبد الغنى المنشاوى المشرف على
المجلة عقليتان مختلفتان ، ولن يعجب الشيخ ماسوف يقدمه
مصطفى من إنتاج ، ولا بد أن يكتب الزميل وأن يحوز ما يكتبه
رضاء الشيخ المشرف العام

وقدم لنا مصطفى أمين ترجمة لفصل من إنتاج شارل ديكنز
الاديب الانجليزى الكبير فى أسلوب شاعرى منشور وأجاز
الأستاذ المقال ، وأعجبت أنا به ، وراقنتى المعانى وان أدهشنى أن
يكتب ديكنز عن (التلميذ البليد) وكان هذا هو عنوان المقال !
وصبر علينا الماكر الطويل مصطفى أمين حتى صدرت المجلة
وظهر المقال يحمل اسمه الى جانب اسم ديكنز ، وجاء يسخر منا
سخرية لاذعة ، فانه توسل باسم الاديب الانجليزى لينشر مقال
والرجل لم يكتب قط هذا المقال ؟ !

وخجلنا ، ثم عذرنا أنفسنا فلم يكن فينا خير بالادب الانجليزى
حتى نكشف ملعوب صاحب النيه ، والشيخ المشرف العام لم
يكن أستاذا فى الانجليزية على أى حال ! ..

وهكذا مضت سنوات الخديوية الخمس ، لم يفتتنا قطار
التوفيق حتى فزنا - أنا وكل صحبى - بشهادة البكالوريا ،
وافترقنا بعد هذا الزمن الطويل ، يعد كل واحد نفسه للمعهد
العالى الذى يصبو اليه ويرجو أن ينال فيه ما ناله فى المدرسة
الثانوية من نجاح

كنت أريد أن أكون محاميا ... وأحمد الله أن فاتنى هذا
النصيب من الحياة ! ...

ومرة أخرى واجهتنى المصاعب ، كيف أقطع دراستى الجامعية
والأمر يحتاج الى أجر فى التعليم ، ويحتاج الى أجر فى السكنى
والملبس والطعام ؟

ومرة أخرى بكى أمى ، واقترح أهلى فى القاهرة وبناها
العسل أن ألتحق بأية وظيفة ، وأسعى للدرس ليلا كما صنع
ويصنع غيرى من المجتهدين الراغبين فى العلم حقا ...
وخشيت شيئا واحدا فى السعى وراء الوظيفة ، خشيت أن
تلتزمنى أمى بالزواج بعد أن تطمئن الى وظيفتى وهى مورد
موضوع ، وكان زواجى شغلها الشاغل ، وكأنها كانت تريد الى
جوارى زوجة تدللنى كما كانت تدللنى هى وانها لترانى دائما
طفلا جديرا بالرعاية والتدليل ...

وجاءت أمى تلح أن آخذ بالرأى القائل بالوظيفة ، ومضت
تؤكد - وكأنها تكشف عن الغيب - أن أيامها فى الدنيا معدودة ،
وان غاية ما تأمل فى البقية الباقية من حياتها أن ترانى زوجا
وصاحب عيال !

فلما أصررت على أن تفرغ للدرس ، ورأيتى حائرا في تحقيق
بغيتى ذكرت مآثر أبى على التعليم ، ثم قالت : كاد أن يكون أميا
إلا أنه بنى المدارس وأهداها للدولة حين بارك الله في ماله ، والله
لمن الظلم أن تكون فى هذه الحيرة لاستكمال دراستك ولا ييك
كل هذا النصيب فى خدمة مواطنيه

واذن فقد أعان أبى الدولة وشاد لها المدارس ، أفما يجدر
بهذه الدولة أن تعين ولده وهو يسعى الى أشرف ما يسعى اليه
مواطن فى الحياة

وذهبت الى بيت لطفى السيد (باشا) فى مصر الجديدة ومعى
توصية من الشيخ مصطفى المراغى وكان صديقا لعمى فى الخرطوم
وقابلنى مدير الجامعة ونصحنى أن أنحى عن فكرى كلية الحقوق ،
فانه لا يملك المجانية فيها ، وانما يملكها فى كلية الآداب ، وأن الله
فى تلك الكلية تلميذا يسوس أمورها وهو رجل مجاهد سعى
سعى وجاهد جهادى حتى أصبح علما يحنو على كل مجاهد
مثله من فقراء المواطنين

وعقدت مجلسا من الصحاب ، محمود وصلاح الشاهد وسيد
رفعت ، ودرسنا الموقف وقلبنا الامر بعد أن لقينى مدير الجامعة
وأصبح لى فى كلية الآداب نصيب ، فان للدراسة فى الجامعة
تكاليف ينوء بثقلها الاغنياء ، فمادام يكون حالى وليس عندى
للكساء والطعام والسكنى مدخول يعتمد عليه أو يركن اليه ،

وليس فى أهلى رجل ميسور الحال يمكن أن تفرض عليه العون
طواعية أو التزاما ، وكل رجل منهم يتكفل جيشا من الأبناء
يركض فى سبيلهم ليسد حاجتهم من تعليم وطعام وكساء »

واشتركنا فى كتابة رسالة الى مدير القليوبية نذكرى له فيها
موقفى ، ونبين له ما قدمه أبى من خدمات مادية للتعليم ، ونطلب
إليه أن يبصرنا كيف يعان واحد من أبناء هذا الاقليم ليتم دراسته
الجامعية وهو ابن رجل له على التعليم فى مدينته يد ومعروف ؟

وقابلنى مدير القليوبية محمد عزمى - رحمه الله - واتفق
معى على أن أكون مبعوث مجلس المديرية فى كلية الآداب ، بشرط
أن أخدم التعليم فى المديرية بعد تخرجى خمس سنوات ، ويلتزم
المجلس مقابل هذا بصرف راتب شهرى قدره خمسة جنيهات
وكم كان لأبى على من أفضال ! ...

كنا فى سنة ١٩٣٠.

وكانت فى كلية الآداب أقسام ، وكانت فيها ثلاثة أقسام يصلح
حالتها لحالى ، فأنا أقرأ الأدب وأسيغه ، فقسم اللغة العربية صالح
لذوقى ، وأنا أجادل وأحب الجدل وأفلسف حياتى وأمنطقها ،
فلا بأس أن يكون نصيبى من الكلية فى قسم الفلسفة ، وأنا أحب
التاريخ وأجد لذة فى قراءته وقد درست فى المدرسة الخديوية
وتفوقت فيه ، فقسمه فى كلية الآداب مناسب لروحى وطبعى
والحق أن وجه شفيق غربال أستاذ التاريخ الحديث هو الذى

جذبني الى هذا القسم وحببني فيه ، ولست أدري لم استراح
قلبي الى هذا الأستاذ منذ وقع نظري عليه وسمعتة في لجنة
الاختيار يتحدث الى العميد طه حسين ! ...

ثلاثون عاما مضت وأنا تلميذ هذا الرجل ، واني لفخور
بأستاذيته ، وانهم مئات أولئك الذين ينافسونني في هذا
التقدير ...

وكنّا في قسم التاريخ ثمانية طلاب وطالبة واحدة ...

كانت هذه الطالبة تأديبا وتهذيبا لنا ، كان لابد أن نحلق
ذقوننا حتى نليق بزمالة فتاة ، وتتحفظ في الالفاظ والعبارات حتى
ننال احترامها وكان معنا زميل أقبل من أقصى الصعيد ، أقبل
فجأة على القاهرة ، فبهرتة شوارعها ومبانيها وانترام الذي يجري
فيها ، وأخطر ماهز مشاعره وجود أنثى الى جانبه تتلقى العلم كما
يتلقاه ، وشغله أن يكون في الجامعة هذا اللون من الحياة التي
تؤاخي بين الشبان والشابات ، وتجعل للفتاة حقاً كاملاً كيحقه ،
ووضعاً مماثلاً لوضع

وكان هذا الزميل يفتن في مظهره ، أحسن لطربوشه الكواء ،
وغرق القميص وكماه في النشاء ، وتوسط رباط الرقبة دبوس من
ذهب ، وبرز في يده اليمنى خاتم من ماس ...

كل قطعة على جسمه الفاره ثروة ... وكان هو في ذاته ثروة ،
فجديته الجلو وقلبه الصافي وضميره النقي ، وسذاجته التي كانت

خديثنا سنوات وسنوات

كانت الجامعة في ذلك الوقت تضم من الأناث في كلياتها الأربع تسع فتيات ، واحدة في كلية الحقوق ، واثنين في كلية العلوم واعدادى كلية الطب ، والباقيات في كلية الآداب

وكانت مصر تحكم في ذلك الوقت بالحديد والنار ، ألغى دستور وقام دستور ، وجاء في وزارة التعليم وزير يزعم أنه حام للثقاليده ، ومن الثقاليده التي كان يحميها مجاربة تعليم البنت وخاصة في الجامعة ، وكان مجلس النواب صورة بديعة لتفكير الوزير ، أو لعل الوزير كان صورة بديعة لمجلس النواب !

ولتعليم البنت في مصر تاريخ كله حصى وأشواك ، الدولة لا تؤثر هذا التعليم بعطف منذ عهد محمد علي الى ذلك التاريخ ، فيما خلا فترة قصيرة بين سنتي ١٨٦٥ و ١٨٧٩ وفيما خلا الفترات الاخرى القصار التي حكم فيها سعد زغلول بأفكار وآراء جديدة أو حكم خصومه من الاحرار الدستوريين ، فذلك كانت الصحوات التي نالت فيها المرأة بعض الحقوق

كان في وزارة التعليم وزير للثقاليده كما يفهمها الوزير ، وكان في الجامعة طه حسين وهو رجل أثموه في دينه منذ عهد غير بعيد ، فكل جديد يراه اثم جديد يضاف الى قائمة الآثام التي سجلت له جيلا بعد جيل

وطه حسين في ذلك الوقت امام لاشك فيه ، قال لنا : هذه

هى الجامعة ، وهذه الجامعة لها حرم ، والاعتداء على حرم الجامعة اعتداء على الجامعة نفسها بما تحمل من مثل وأهداف ، وإن الجامعة فى حياة مصر مفترق طريق ...

وكان مجلس النواب يهاجم طه حسين بين آن وآخر منذ سنة ١٩٢٦ الى سنة ١٩٣٢ فهو غصة فى حلق التقاليد السخيفة البالية ، وقد تأمر لطفى السيد وطه حسين وكامل مرسى عميد الحقوق فى سنة ١٩٢٩ على اقتناص حق البنت فى التعليم الجامعى فى غفلة من حكومات ذلك العهد فاذا أصبح هذا الحق واقعا ملموسا بالتحاق تسع فتيات بكليات الجامعة الاربع حفظها لهم الملك فؤاد وحواريوه

وقد عرفت طه حسين منذ سنة ١٩٣٠ وحضرته أستاذًا وعميدًا لكلية الآداب ، وكنت شديد الايمان به ، مقبلا عليه اقبالا منقطع النظر ، وكان كل رأى يقول به طه حسين يلتقى من نفسى هوى ويملؤها غبطة ، فقد كانت آراؤه فى السياسة والادب والاجتماع جديرة حقا بالتأييد

وبالرغم من أن طه حسين كان مشهورا حينذاك بأنه على رأس المجاهدين لسعد زغلول وأن له فى سعد مقالات فى جريدة السياسة مؤذية ساخرة ، وسعد له فى ذلك الوقت مقام مقدور ، وهو سيرة عطرة يوقرها معظم المصريين ، فإن الرجل لم يخذشه خلافه مع سعد أو يصغر من شأنه عندنا ، لأن طه حسين كسعد

زغلول ، قطعة رائعة من تاريخنا القومي ، له رسالة في حرية
الرأى والفكر ، وله نزعات في تجديد حياتنا ورفع مستواها ،
لا تقل أبدا عن رسالة سعد زغلول في ميادين السياسة وجهاد
الانجليز

وقد أقمنا في قسم التاريخ حفل شاي دعونا اليه الاستاذ
العميد طه حسين ، ودعونا الى الحفل طالبات الكلية وبعض
طالبات الكليات الاخرى ، وانتحى الطالبات ركنا ، وانتحى الطلبة
ركنا آخر ، ولكن طه حسين أشار بأن تجلس الطالبات الى جوار
زملائهن ، حتى تبدو وكأننا أسرة ، ويعلم الناس أن الجامعة
تخلق في حياة مصر حياة شريفة كريمة لا يسىء فيها اختلاط
البنات بالبنين الى شيء من الآداب أو الاخلاق

وظهرت الصورة في الصحف ، وقامت جريدة الشعب لسان
حكومة ذلك العهد بحملة عنيفة ، وقام مجلس النواب بشورة
هو جاء كيف ينشر طه حسين الفساد في كلية الآداب ، وطالب
نظام الحكم برأسه وقلبه ولحمه ودمه حتى تنقذ الفضيلة من
سعى هذا الرجل المفسد الذي يقبل أن يظهر في صورة فيها
الصبيية الى جانب الصبيات ؟ ! .

وأصبحنا فاذا طه حسين منقول من الجامعة الى وزارة المعارف
مفتشا للغة العربية أو كبيرا للمفتشين .

وقد كنا مؤمنين بأن (رجلنا) أكبر من هذه الوظائف ، وأعز

علينا وعلى مصر من أن يجسوا آراءه وأفكاره في نطاق التفتيش ،
ودعينا الى مؤتمر عام في كلية الطب ، تزعمه نور الدين طراف ،
وشارك فيه جميع طلبة الجامعة ، وفي مقدمتهم أعضاء مجلس
الاتحاد ، وكنت واحدا من أعضاء هذا المجلس ، وكان تكوين
مجلس الاتحاد أسلم وأنظف وأشرف من تكوين مجلس النواب ،
لأنه جاء نتيجة انتخابات حرة بين طلاب الجامعة ولم يجيء نتيجة
ضغط أو تزوير أو ارهاب

وكان من أعضاء هذا المجلس ، نور الدين طراف وفريد زعلوك
ويحيى العيلالي ونامق ومصطفى السعدني والظاهر حسن
وابراهيم عبود وعلى كريم وسهير القلماوي ومن قبل فاز
بعضويته محمد خشبة ومحمود الأتربي وفؤاد سراج الدين
وغيرهم من شباب الجيل ، وكلهم مختلفو المذاهب السياسية
ويتفاوتون في الجاه والكفاية ، ومعظمهم يخضع لتوجيه الأحزاب ،
وان كانوا في محنة طه حسين كفا واحدة وعصبة ليس لها فكاك .

وقامت الثورة في الجامعة ، ومضت الحكومة في غنفها
فأغلقتها ، وفصلت طه حسين من وظائف الدولة ، وخاربه في
رزقه ، ثم عادت وفصلت بعض الطلاب — وأنا منهم — لآماد
مختلفة ، وكان من أقبح مخلفات هذه الأزمة أن ولي منصب
العميد بعد طه حسين المستر سنكورت أستاذ الأدب الانجليزي
في كلية الآداب

وكنّا في هذه المحنة معادن ، استسلم أساتذة الجامعة للمصير
الذى وصلت إليه جامعتنا فيما خلا الدكتور محمد عوض ، فكان
الى جانب طه حسين فى محنته فنقلوه أستاذًا فى مدرسة التجارة
العليا ، أما بقية القافلة من الأساتذة والمدرسين فقد سارت مع
الأحداث تتفرج كأن الجامعة لم تمس بسوء ، وكأن حرمتها لم
يعتد عليها أحد

وبقى الطلبة حيث كانوا تضطرم نفوسهم بالغيظ والحق ،
وخاصة أن حكومة ذلك العهد جاملت المحتل فى كل شأن من
شئون البلاد ، وأردنا بعد قضية طه حسين بسنة - وكنت أعمل
اذ ذاك محررا فى جريدة كوكب الشرق - أن نحتج على تصرفات
الحكومة المؤذية لكرامة بلادنا وشرفها ، وتخيرنا - سرا - كنف
هرم الجيزة مكانا مناسباً لانعقاد المؤتمر الجديد ، غير أن
الحكومة فاجأتنا صباح اليوم الموعد بقرار من مجلس الوزراء
نشرته جريدة الأهرام ، بفصلى وفصل فريد زعلوك ومحمد
كامل حسين وحمدى البكرى من الكليات التى تنتسب اليها •

لم يكن فصلنا من الجامعة أمرا بالغ الخطورة اذ ذاك ، ولكن
الأمر الخطير الذى عرفناه بعدئذ هو الوسائل التى عمدت اليها
الحكومة كي تكشف عن موقف الجامعيين منها ، فدمست علينا
بعضنا لقاء أجر معلوم ، فكانت أخبارنا يتقلها أغز الناس
علينا ونحن لا ندري أن زمالتنا تحيط بها كل هذه الريب
والشكوك

ومضى أصدقاءنا بعد قرار فصلنا والسخط يملأ قلوبهم ،
وما انعقد اجماع المصريين على الضيق بحكم مثلما انعقد اجماعهم
على الضيق بالسياسة التي ساس بها الملك فؤاد شئون البلاد •

والحق أن فؤادا كان أثقل من حكم مصر ظلا وأبغضهم الى
قلوب المواطنين ، اذ كان رجعيا أعجمي اللسان والفكر ، غليظا
لا يسبغ النكتة ولا يتجاوب مع شعبنا وهو أخف شعوب العالم
دما وأرقها حاشية وأذكاه عقلا وأغناها لماحة وبداهة

وكذلك كره هذا الملك أقاربه وأنسباؤه ، وحضرت في ذلك
اجتماعا خطيرا في بيت مطلقة شويكار ، دعانا اليه زوجها الهامى
حسين ، وتوسط بين الداعى والمدعوين صديقنا ضياء الدين صالح
الطالب بكلية الحقوق والمستشار الآن بمجلس الدولة ، وكان
يربطه بهذه الجبهة في الأسرة المالكة رباط قديم ، ولعل للجيرة
دخلا في هذا الرباط .

وكان المدعوون معظم أصدقاء العمر ، توفيق الطويل وحسين
مؤنس وهما اليوم أستاذان في الجامعة ، ومحمود الشاهد
وصلاح ذهني رحمهما الله ، وعبد القادر السماحي وآخرون . كان
من بينهم شاب مغرور من طلاب الحقوق لا أذكر اسمه ، وكنا
نطلق عليه ساخرين لقب «المحامى الصغير» لتفاهة عقله وقلة
ادراكه ! !

وقد رأيت الملك في أبهته ونظام الطبقات في أبرز ملامحه وأنا

أدخل بيت شويكار في ضاحية المرج ، فقد هجم علينا الخدم
يزيلون عن أحييتنا ما علق بها من تراب ونظراتهم تنم عن
الدهشة والاستغراب ، اذ يبدو أننا كنا فئة من الخلق عجيبة لم
تعرفها من قبل الدار ، وتقدمنا رجل يرتدى بزة خاصة ، وأخذ
يحيينا بانحناءة كلما وقع نظره على واحد منا كأننا شيء جدير
بالتحية والاحلال ؟ !

ودخلنا حجرة اجتزنا للوصول اليها حجرات ، فاذا في الصدر
رجل جميل الصورة يستقبلنا محيا في لغة فرنسية سليمة ، عرفنا
أنه الهامى حسين زوج الأميرة شويكار .

وقدمونا الى (أفندينا) كما طلبوا إلينا أن نسميه ! واحتفل
بنا الرجل وزادنى في الوزن حبة ! فقد كنت الصحفي الوحيد
في المجموعة التى جاءوا بها لتدبر مع الهامى حسين وزوجته
مؤامرة ضد الملك فؤاد .

ودعينا الى تناول العشاء ، فتصدر المائدة زوج الأميرة ،
وأجلسنى الى يمينه ، وأجلس ضياء الدين صالح الى يساره ،
ونبهوا علينا أن نعرف من الطعام ما يكفيننا حتى لا نترك في
الصحاف شيئا ، وألا نتحدث إلا اذا أذن لنا سمو أفندينا ...
وألا ننطق والطعام فى أفواهنا ، والضحك ممنوع أصلا ، واذا
القتضاه الحال كتمناه حتى يتحول الى ابتسامة خفيفة لا تنفرج
عنها الشفاه الا قليلا ...

كانت جميع التوجيهات الخاصة بأداب مائدة شويكار ممكنة التنفيذ، وكان «الحرج الشديد» الذي أصابنا على تلك المائدة هو كيف نأكل العصافير التي صادها لنا أفندينا؟ كيف ننسل لحمها من عظمها إن كان فيها لحم؟ وهل نستعمل أياديها في تناولها؟ وهمست في أذن حسين مؤنس ... نأكلها يا أخى كما يأكلها أفندينا

وغمس أفندينا شوكتة في واحدة منها ودفع بها إلى فمه ، وكان في طبقى ثلاثة عصافير ، فعلت بواحدة منها مثلما فعل زوج الأميرة شويكار ، وأخذت أمضغها دقائق مرت كأنها جيل ، واستعنت بالماء كوباً بعد كوب حتى ازدردتها من غير جروح تصيب الحلقوم ! ..

ودهش (أفندينا) للأسنان التي كسحت ما في أطباقنا من عصافير في اللحظات ، وعرض علينا مزيداً منها فاعتذرنا جميعاً في حماس ليس له نظير ، وحين خرجنا قذفنا إلى الطريق العام ما كانت تزدهم به جيوبنا من عصافير؟! ! ! ...

ثم انتقلنا إلى الصالون الفخم وبدأ الاجتماع الكبير ، وقدم لنا أفندينا وثيقة تعلن عزل الملك فؤاد وتنصيب أمير آخر من الأسرة اشتهر بخلافه مع الملك حتى أنه تنازل عن لقب الإمارة والأمير

ووقعنا الوثيقة وصدورنا منشرحة فقد حسبناه عملاً وطنياً

وان كنا لا ندري مغبته لو كشفه الكاشفون

وبعد سنة وشهور مات الملك فؤاد والتأم شمل الأسرة من جديد وعاد الامير الثائر الى لقبه ، ومنح الهامى حسين رتبة الباشوية ، وظهرت شويكار فى المجتمعات كأنها أم روحة لفاروق على طريقة لم تؤثر قط عن أم فى الوجود ؟ !!

كانت مؤامرة لا تجاوب فيها بين المؤتمرين ، فهم — مهما يكن بينهم من خلاف — أمراء وسادة ، وتحن فى تقديرهم من العبيد أبناء الفلاحين ؟ !

لقد أضفت فى الجامعة الى أصدقائى القدامى أصدقاء جدد ، لم تفرق قط ، ولم تشب مودتنا شائبة من تلك الشوائب التى تفسد بين أصحاب على مدار الأيام ، وكنت وسيطا فى خلق صداقة قوية وطيدة بين أصدقائى القدامى فى المدرسة الخديوية وأصحابى المحدثين فى الجامعة .

لقد كبرنا أبان دراستنا الجامعية ، وكبرت معنا المسئوليات ، وزاد اختلاطنا بالناس كما زادت معرفتنا بالحياة والأحياء وبدأت أحس أن جمال الدنيا يعتوره القصور والتقصان وإن لم يكن ذلك على وجه يزعج مثل قلبى ، وهو قلب فطر على محبة الناس والثقة فيهم والايان بانسانيتهم .

قال لنا لطفى السيد : يجب أن تحيا الجامعة حياة غير حياة الناس ، وكنت أظن أن هذا أمر ميسور ، بيد أننا لم

الناس ، الناس بخيرهم وشرهم ، بنظافتهم وقذارتهم ،
بسماحتهم ولؤمهم ، وإلم أجد قط ، وأنا قد عشت في الجامعة
نحو ربع قرن ، أتنا نختلف كثيرا عن سائر الناس ، وأخشى أن
أزعم أنني وجدت أخيرا بعض مواطني من أبناء البلد على خلق
كنت أرجوه لكثير ممن في الجامعة من المعارف والزملاء

وإذا كنا مثل سائر الناس ونحن في الجامعة ، سواء كنا طلابا
أو أساتذة ، فليس من الضروري إذن أن أفصل هنا كيف كنا
كسائر الناس ؟ ! ...

حسبي أن أحكى كل جميل عرفته في الجامعة ، فإن من أعز
السنوات التي عشتها بسنوات الجامعة ، وهي سنوات مليئة
بالعبر ، مليئة بالمرح ، حافلة بالجميل والجميل ، زاخرة
بالأسرار والأخبار

إن الجامعة في حياتي شيء هام وأصيل ... صحيح أن
المدرسة الخديوية وضعت في نفسي وقلبي وعقلي اللبنات الأولى
في تكوين شخصيتي وتكوينها ، غير أن الجامعة صقلت القاعدة
وشدبتها ، وإن كانت الحياة في الجامعة ، في وقت ما قد شابها
ما يدعو إلى الحسرة التي هدمت كثيرا من الشعور الشامخ
والاعتزاز العظيم بما كنا نراه في جامعتنا العتيقة

أعود إلى الصبحبة التي ماوهنت يوما ، والعسرة التي
ما انفصلت أبدا ، أعود إلى أصدقائي إبراهيم رزقانة ، زميل

قديم ، ونجيب محفوظ وهنرى فلتس وعبد الفتاح
زكى رفيق الشدة والرخاء وابراهيم سرالامون وفريد زعلوك
ونور الدين طراف وتوفيق الطويل وأبو بكر نور الدين ومحمود
الشاهد وصالح الشاهد وعبد القادر السماحي ومصطفى طه
حبيب وسعاد السماع وغيرهم كثير

كل هؤلاء كانوا صحبى ، بل كانوا أهلى ، بدأ رباطنا طلابا
فى الجامعة ، ولم نشعر قط أن بعضنا أصبح وزيرا أو رئيس
وزارة أو موظفا مرموقا أو كاتبا معروفا أو مؤرخا بعيد الصيت ،
فكل ذلك من عرض الدنيا ، وقد بدأت صداقتنا ومضت مع
الأيام مبرأة من الهوى ، بعيدة عن الغرض ، فوق عرض الدنيا
وما فى الدنيا من ترهات !

كان طراف وزعلوك على طرفى تقيض فى أمور السياسة ،
الأول أميل للأحرار الدستوريين بحكم صلات الاسرة التى
ربطت بينها وبين قادة هذا الحزب وان كان فى قرارة نفسه يؤمن
بنظام معين ، والثانى من الطلبة أنصار الوفد المعروفين ، ومع
ذلك كله فهما صديقان حيمان ولا يزالان على المودة متفقين
وكنت فى أمور السياسة والنظر اليها وسطا بينهما ، وكان
أحدهما وكيلا لاتحاد الجامعة والثانى سكرتيرا عاما ، وهما أخطر
مركزين فى توجيه هذا الاتحاد ، وكان انتخاب الوكيل والسكرتير
العام يشغل كل سنة أحزاب مصر ، ولولا شخصية طراف ، وهو

كما قلت فيه من ربع قرن كالقمياش الابيض التنظيف في عين الشمس ، لولا هذه الشخصية اللطيفة الملهذبة لما استطاع أن يكون وكيلا أو سكرتيرا عاما للاتحاد فقد كان يمثل القلة الضئيلة في الجامعة

ثم تفسد السياسة والاختلاف النظر فيها ما بين الصديقين ، وانما أثر فيهما وحز في نفسيهما شيء آخر بعيد جدا عن الجامعة وعن السياسة وعن الزعامة

أيهما أكبر سنا ؟ !!

قدم فريد زعلوك شهادة ميلاده في الاجتماع عائلي حضرته الصحبة كلها تثبت أنه مولود سنة كذا من السنين ، فهو اذن أصغر من صاحبه عدة شهور !

وطعن طراف في الشهادة وزعم أنها لشقيق لزعلوك ولد بعده ومات ! أو لعلها كتبت حين أراد أبوه أن تكتب بحكم أنه العمدة وعين دسوق ، ولا شك أنه نسي تقييد ولده في دفتر المواليد عاما وعدة شهور ! ♦♦♦

أقول ان هذا الأمر شغل بال الصديقين سنوات وسنوات منذ أيام التلمذة الى أن بلغا مراتب الوزير ، حتى أتت دعيت يومنا - وكنت رقيبا للنشر ومديرا للمطبوعات - الى مقابلة « معالي » وزير الدواية فريد زعلوك ، وكانت الدعوة جريئة عاجلة ملحة ، وكانت هناك أزمة بين الحكومة والقصر ، واعتقدت أن وراء هذه

الدعوة خبيثا يقتضى وجود مدير المطبوعات

ومضيت الى رئاسة مجلس الوزراء ، وأنبأنى صلاح الشاهد
أن الوزير - وكان مجلس الوزراء منعقدا - سأل عنى أربع
مرات ، ووجدت فى بهو الرئاسة نحو خمسين صحفيا أحسوا من
وجودى وتعلق صلاح الشاهد أنى حين ألقى الوزير سألنى اليهم
نبأ خطير

وخرج لى زعلوك من جلسة مجلس الوزراء

وقال : هل علمت ؟

قلت : علمت ماذا ؟

قال : ان طراف (باشا) - وكان وزيرا وزميلا لزعلوك فى وزارة
نجيب الهلالى - أنبأنى من نصف ساعة بتاريخ ميلاد شقيقه
نور الدين طراف انتى أصغر منه بسنة وشهور ؟ !!

قلت ساخرا : يامعالى الوزير ، هذا نبأ خطير ، وهو بالاذاعة
جدير ، فهل تسمح لى بأن أقذف به فى وجوه الصحفيين ، فهو
أهم من الأزمة التى انعقد لها مجلس الوزراء ، وأخطر من خلافكم
مع فاروق !!

قال : صدقنى ان هذا النبأ فيه من الجد أكثر مما يصنعه معنا
وفينا الملك فاروق !

والتقى الصبح عندى فى المساء ، ومن بينهم طراف وزعلوك ،

وكانت ملحة الليلة مازغمة زعلوك على لسان شقيق طراف !...
مالنا والوزارة والوزراء... فلنبق حيث كنا طلابا في الجامعة
أو أصدقاء لا تشق لنا جبهة أو تفت في صحبتنا الاحداث الكثار
كان التعليم الجامعي في تلك الايام شيئا بديعا حقا ، لم تكن
لمذكرات الاستاذ قيمة ان لم نقرأ بعمق في الموضوع أكثر من
كتاب ، وهي مراجع باللغات الاجنبية ، وكان ذلك يشغلنا معظم
الوقت ، ويعلمنا الاعتماد على النفس ، ويبصرنا بكثير من الحقائق
التي تفوت الاساتذة عادة وهم يلقون الدروس

وكان أساتذتنا فحولا ، وكنا نراهم أنصاف آلهة ، وهم في
الحق جديرون بأكثر من هذه النعوت والوصاف ، كانوا طه
حسين ومحمد شفيق غربال والشيخ مصطفى عبد الرازق ومنصور
فهمي وعوض محمد عوض ومصطفى عامر وأحمد أمين وأمين
الخولي والشايب وغيرهم من أئمة فنون الآداب

وكنا نحبههم ونوقرهم ، وكنا قريبين منهم قربهم منا ، هم
أساتذة كبار ونحن أساتذة صغار ، أو قل كلانا تلميذ في محراب
العلم ، وانما هم الرواد الاول ونحن البواكير على خطوهم نسير
لقد كانت الجامعة في ذمتي سداً عاليا وقف طغيان كل جبار ،
وتحدث الملوك وساندت الاحرار ، وبذلت عند الضرورة - كما
حدث في سنة ١٩٣٥ - دم فتيانها في سبيل لا يجود به الا من
آمن برسالة وعاش من أجل عقيدة ، وأبى أساتذتها أن يسيروا في

ركب النفاق ولو عصف بأرزاقهم ملوك ذلك الزمن وأدواتهم من
نفاية الوزراء

كانت الجامعة تحيا في رجل ... في طه حسين

قرأنا له نحو خمسين كتابا وملاؤ صوته أسماع الناس وشغلت
صورته أبصارهم ... كان بعيد النظر ... كان عميدا لكل
جديد ، وكان شجاعا ، وكان علما على حرية الرأي والفكر ...
وسيطر الرجل على قلوب الشباب بعلمه الواسع العميق وآرائه
الخلاصة الجذابة ، وكان إيمانه بالحرية أقوى من الحرية نفسها !
حتى لم يرض الأحرار المسئولون عن الطائر الذي يغرد على هواه ،
فلاموه في مجلس النواب ، وطارت في سبيله وزارة ، ولعلها
الأولى والأخيرة أيضا في حياة مصر التي تستقبل فيها حكومة
ويبقى مجلس النواب ! !

دعا الى الحرية لا في شئون السياسة والتعليم فقط ، بل غنى
على أوتارها في شئون الدين والدنيا حتى أثموه في عقيدته وخلقه ،
وصدرت في حقه قرارات الحرمان ، وصودرت كتبه وحرقت في
في كل مكان ...

كان لا يريد أن يحجر على الرأي وان خالفه أو يضطهد القلم
ولو شط صاحبه ، وقد أغروه بمال الدنيا ومراتب الجاه
والسلطان ، فعز لسانه وقلمه على دعوة الطغاة وهانت لديه
مراتب الجاه والسلطان ! ...

لم يطبل قط ولم يمسك بمزمار ، فكان علما في ظله ووقفت
الجامعة صفها واحدا ، فكانت لها حرمة وكان لها صيت
صانها من الغواية والشيطان ! ..

وكم قاسيت في الجامعة الأعيش !

كان للجامعة مطالب أهمها الكتب والمراجع وما أغلاها ...
وكانت جنيهات مجلس المديرية الخمسة تذوب في مطالع الشهر
وحاجاته ، وكان لابد أن أعمل لاستكمال الناقص من مطالبى ،
فاشتغلت بالصحافة وأصبحت محررا في جريدة كوكب الشرق ،
وتوسط لى عند صاحبها صديق كريم الخلق أصيل المعتقد من
بيت أبى رحاب بالصعيد ، كان نائبا فى مجالس النواب المختلفة ،
ويد هذا الرجل على غير منكورة ، انه سعد الدين أبو رحاب ..

وكانت جريدة كوكب الشرق أكبر الصحف المسائية يومئذ ،
لان محررها أستاذى طه حسين ، وطه علم وقلم ، فاختر الى كلمة
أكتبها كل يوم بعنوان (صور المساء) وأجزلت الصحيفة العطاء ،
فقررت أن يكون راتبى أربعة جنيهات فى كل شهر ، وكان هذا
راتبا فى الصحف مرموقا ، وهو مرموق اذا علمت أن طه حسين
كان يتقاضى أعلى راتب يتقاضاه صحفى فى مصر ، ثمانين جنيها
مقابل تحريره والإشرافه على التحرير ، وتوجيهه لكل ما فى الصحيفة
من بيان ! ...

وأشهد أنى بقيت فى كوكب الشرق أحرر يوميا « صور

المساء » نحو أربع سنوات سعيدا بما أكتب ، وأشهد أيضا أنى لم أنقد راتبى قط دفعة واحدة ، بل كان المسئولون فى الجريدة ينقدوننى اياه على خمس أو سبع أو عشر مرات ! ... وكانت احدى المرات عشرين قرشا ؟ ! ... وأشهد أيضا أن ادارة الجريدة لم تؤخر لى راتبا فى أى شهر ، فانتظام الشهور فى نقد الراتب أمر مؤكد ودقيق ، أما تسليم الراتب فكان على دفعات ؟ ! ...

ولم تفكر جريدة كوكب الشرق فى منح أى محرر علاوة ما ، فنظام العلاوات والمكافئات التشجيعية لم تكن تعرفه الصحافة المصرية فى عمومها ، ويبدو أن المسئولين فى كوكب الشرق اعتبروا راتب المحرر تعاقدًا أبدى لا يزيد ولا ينقص بحال ، والمحرر الذى لا يعجبه الأمر أمامه باب الجريدة والسع تقوت فيه قافلة من الجمال ! ...

وترك طه حسين جريدة كوكب الشرق يوما غاضبا ، وأذكر أن صاحب الجريدة فزع الى مصطفى النحاس (باشا) ليتوسط عند الكاتب الكبير ، وعرض الرجل عقدا على (بياض) لطله أن يملأه على هواه ، ورفض أستاذى العرض وأبى أن يعود عن قرار اتخذه مهما تكن الظروف والملابسات ، وتلك خلة تعجبنى ، أن يعاند المرء مادام على صواب ، وطه حسين كان يرى أنه أهين ، ولا يمكن أن تمسح اهاتته آلاف العقود البيضاء ...

وفى كوكب الشرق تعلمت كيف أفكر وأكتب ، وكان طه حسين

يدعوني كلما رضى عن مقال لى ويشجعنى بكلمة حلوة تزيدنى غبطة وثقة فى مستقبل الايام ، وقد نصحنى ألا أعيد قراءة مقالاتى بعد نشرها حتى لا يدفعنى غرور المتواضعين أو تواضع المغرورين الى الاعتزاز بما كتبت ، وهو - فى رأيه - شئ يفسد على المبتدئين نجاحهم .

لم أعمل قط بنصيحة طه حسين ، فقد كنت أنتظر بائع الصحف عصر كل يوم لأقرأ مقالى مرات ومرات ! !

و كنت أومن بأن حرية الكاتب فى الجريدة شئ له قداسته ، وأذكر أنى شاهدت أول فيلم لعبد الوهاب واسمه (الوردة البيضاء) وكان عهد المصريين بتمثيل السينما فى خطابه الأولى ، فلم يرق لى موضوع الفيلم ولم أرض عن تمثيل هذا الفنان المفتن الذى له فى أسماعنا صدى كبير ، فنقدت ما رأيت فى عدة مقالات ، وطلبنى طه حسين ، وذكر لى أن فيلم عبد الوهاب بداية طيبة وأنه شهده وأعجب به ، وأن هذا رأى ليس رأيه وحده بل هو رأى كبار رجال الوفد وأنصاره العديدين .

ثم قال : و انتى معجب بما كتبت من رأى فى الفيلم العجائى بالفيلم نفسه ، و أنت حر فيما تبدى من آراء ، وأرجو أن يكون مقال الغد فيه الخاتمة لما تكتب من نقد عنيف

وفهمت أن طه حسين صان بذلك قلمى ورأىى وحرىتى ، ولو لم يكن هذا الرجل هناك لعصف بى القوم عصفا ، فقد كان

محمد عبد الوهاب صديقا حميما لرئيس الوفد وسكرتيه العام .
ودفعنى النجاح فى كوكب الشرق ، والاسم الذى كان يقرأ
يوميا الى جانب الفحول من الكتاب ، وفى ذلك من الزهو مافيه ،
دفعنى هذا الى تأليف قصة بعنوان (الحياة الثانية) طبعت منها
ثلاثة آلاف نسخة ، وبيعت النسخة بخمسة قروش ، وكتب
مقدمتها الدكتور طه حسين . . .

دفعنا عشرين جنيها ثمن الورق وكان أبيض ناعما ، وتعاون
أصدقائى هنرى فلتس و ابراهيم سرا بامون ومحمود الشاهد فى
تمويل ورق الكتاب ، وتوليت سائر التكاليف من طباعة وتجليد
وتدريس وهى نحو عشرة جنيهات ؟ ! . . .

وأشرفنا بأنفسنا على عملية الطبع بالفجالة ، وكانت آلة الطباعة
تدار باليد ، وكان من يديرها يتقاضى عن الساعة عشرة قروش ،
وكنا تخفيفا للمصروفات تتولى نحن الاربعة بالتناوب ادارتها
بأيدينا وكم عرقنا وكم تقطعت قلوبنا حتى تم طبع الكتاب !! . .
وقام بقية الاصدقاء والصديقات ببيع الكتاب فى مختلف
الكليات على طلاب الجامعة وأساتذتها حتى نفذت الطبعة الأولى
فى أيام

كان أول كتاب لى ، ولعله كان أسرعها فى الذيوع والانتشار
أعود الى كوكب الشرق وما أصابها من تغير ، فقد جاء أحمد
ماهر ليملأ الفراغ الكبير الذى تركه طه حسين ، وأحمد ماهر

رجل اقتصاد وسياسة وليس له أسلوب وليست له تلك الملكة التي خص الله بها أدينا الكبير ، وان كان أحمد ماهر ذا عقل واع وفكر ناضج ومنطق سليم ، وكان يلقي بآرائه وأفكاره الى الأستاذ عباس حافظ ، وهذا يصيغها في أسلوب جميل

وكان زملائي في تحرير جريدة كوكب الشرق ، جلال الحمامصي وكامل الشناوي ومحمد صبيح والدكتور كامل حسين الأستاذ بجامعة القاهرة الآن ، ومفيدة عبده زميلتي في كلية الآداب ، وغيرهم كثير ، وكان بعضهم معنا بحكم صلاته بالوفد والوفديين ، وبعضهم بحكم ما يربطه بطله حسين ، ولم أكن من هؤلاء أو هؤلاء وان لم أخف تحسني للوفد اذ ذاك وايمانى العميق بأستاذي الكبير



لم تهدأ الجامعة قط في عهد اسماعيل صدقي (باشا) سنة ١٩٣٣ ، فهي دائما فوارة ثائرة على أوضاع العهد وفساد الحال ، وكان صدقي (باشا) داهية عنيفا فرض الحصار على جامعتنا وألزمنا بالسير فرادى أقبلنا على الجامعة أو مضينا عنها ، وقد خرجت مرة في يوم ثائر عصيب بصحبة أمينة السعيد زميلتي في الكلية في طريقنا الى الترام ، وأقبل ضابط في يده عصا واعتبر سيرنا معا تجمهرا يحظره القانون ! وكاد أن يعتدى على زميلتي وهي تتحاجه بمنطق سليم ، وأصبت بحرج ما بعده حرج ، فان الرجل ان اعتدى عليها اضطرت بعامل الشهامة والمروعة أن

أتدخل وأحول دون هذا الاعتداء ، وعزت على نفسى فأنا دقيق
الجرم ان تفخونى أطير ! وأنا لا أذكر فى حياتى أنى اشتبكت مع
إنسان فى معركة ، فكيف أبدأ التجربة مع ضابط ضخيم فى يده
عصا وخلفه جم من الجنود غفير ؟ ! ...

وهدى الله أمينة السعيد ... وهدى الله الضابط الكبير ! ..
وفى تلك الأثناء مرت فى حياتى أعمق المحن وأدقها ، اذ ماتت
أمى ، وكان موتها شيئاً مؤذياً لنفسى وقلبى ، وما كنت أظن أنها
تموت مبكرة ، ولو عاشت مائة سنة لظننتها ماتت مبكرة أيضاً ،
فان فقدان الام شىء فظيع جداً سواء كنا فى المهد أو بلغنا من
العمر أرذله ...

ماتت أمى وهى تبارك نشاطى وكفاحى ، وتذكرى فى نفسى
الحماس ، وتهبى شجاعة فى غصيب المواقف ، وقد بكيتها أياماً
كثيرة وافتقدتها فى أيام كثيرة ، ومن عطف الله جلت قدرته أنه
خص الإنسان بفضيلة الصبر حتى جعل المصيبة فى الموت أخف
المصائب ... كل مصيبة فى الحياة تكبر عادة مع الزمن الا الموت ،
فان الفجعة فيه تخف مع الزمن ...

حكمة عزت عن الفهم والادراك

ووسط هذا الأسى والحزن ، تزوجت المصيبة التى هفا لها قلبى
منذ بعيد ، وكان حبى لها أصدق ماعرفه قلبى من حب ، دفاع
للمجد والخير ، فيه الايثار أميز مافيه ، وفيه العطاء أجمل مافيه ،

وفيه قبل ذلك كله طهر قلما ينبض به قلب شاب
وكانت محنة ثانية قاسية ، صبرت فيها صبر القدرى الذى
يخضع عادة لقضاء الله

ان حياة الفرد فى ذكرياته ، وكلنا متشابھون من حيث المبدأ
فى هذه الحياة ، غير أن كل انسان معلق بطيره متفاوت فى
حظه ، خاضع لما حوله من بيئة وناس ، وأنا كسائر الناس ،
لا أملك أن أصنع حياتى بنفسى ، وانما هى من صنع القدر ، ربما
كان لى فيها ما للرسام من أدوات التلوين !

لا تقتصر النكبة فى أمى على موتها ، فذلك كتاب مرسوم وقضاء
محتوم ، بيد أنها الوحدة التى أحسها دائما منذ وفاتها الى
اليوم هذه هى النكبة التى تلازمنى ، فقد كنت زوجا
لسنوات وسنوات ، وأنا أب لشابين كبيرين وربما أصبحت جدا
يوم يصدر هذا الكتاب ، ولى مئات من المعارف والاقارب وعشرات
من الاصدقاء ولكننى وحيد ! ! !

الوحدة لا تعنى أن يكون الانسان بغير ناس ، الوحدة شعور
داخلى عميق ، وفراغ هائل مخيف ، لا يملؤه الزواج ، وقد
يشغل بعضه الولد ، ولا يغنى فيه الناس

أمى وحدها التى كانت تدع ان مرضت ، وأمى وحدها التى
كانت لا تنام اذا طال بى السهر ، وأمى وحدها التى كانت تنكر
أننى أكلت وشبعت مهما أسرف فى الطعام أو أتخم من طيبات

ما كانت تصنع لى من ألوان ! وأمى وحدها التى كانت تخاف على
أموالى وتخشى أن تضيع الا على نفسى ، بل كانت تهبنى كل
ما عندها من مال قليل

أمى وحدها التى عاشت لى مجزية معطية ، وكل الناس حتى
من هم منى وأنا منهم ؛ كنت لهم نهبا

هات ، هى الكلمة الوحيدة التى سمعتها منهم ، وهات
هذه كانت تقال فى الضرورة وفى التافه من الأمور ، فى
الشدة وفى الرخاء

لم يرحمنى أحد

اسع حتى نلبس ودرس فى الجامعة حتى نأكل ثم
عليك أن تذيب الأحاديث فى كل مكان ولا تترك مكتبك
قبل أن تكتب لنا ألف كتاب وألف مقال نانتا نريد كل
ألوان الترف التى يجرمها أو كاد يجرمها معظم الناس !

مت يارجل وهات لنا مالم يجىء به انسان
كانت أمى تقول حين ترانى اكتب أو أقرأ أو اسعى للعيش فى
جد وجهاد ارحم نفسك ! كلمة لم أسمعها من انسان

ان الناس ، كل الناس ، لم يرحمونى وانى لأعجب من
نفسى ، هذه النفس التى لا تزال تؤمن بالرحمة والحب
والغفران !

وأعجب لنفسى وأعجب لقومى معى

نحن شعب ضاحك باسم ، رواح ، لا نحمل هما ولا غما
بالرغم من آلاف السنين التي عشناها في الهم والغم شعب
بنى الأهرام راضيا ونصف البناة يتساقط من البرد
والجوع !

نحن شعب يسخر من البؤس فيحيله الى نكتة ، ويفتر ثغره
للمآسى ، فيبلع مع الريق همومه ، ويهضم في رفق ما يدهمه من
نكيات ...

وحتى في الموت ، قد لا نعود من نازلة الا وفي جعبتنا حكاية
مرحة أو نكتة عايرة أو قصة ماجنة ، نسمعها في صفوف
المشييعين أو في صيوان العزاء انها نفس الحكايات والنكت
والقصص التي تروى في حفلات البهجة والسرور !

ان المصري اذا افتقد النكتة في خصمه بحث عنها في صديقه ،
فاذا عزت في صديق أو حبيب أطلقها في نفسه ، ومضى يرويها
ويمثلها حتى تصير حكاية يتندر بها الناس جيلا بعد جيل !

من هذا المعين غرف صحبى فاستطاعوا أن يحيلوا هذا الانسان
المجروح المكلوم الى انسان ضاحك بسام ، فمضوا به في غمرة
الحياة التي كنا نحياها يحملون عنى جزءا من همى ، بالنكتة
الساخرة ، والملحة العميقة ، فاذا صحبتهم تطب لآلامى ، وتعود
به الى المرح الذى أعاننى على احتمال كل مكروه واجتياز كل
معبر عسير

ولن أنسى الحبيب الذى مضى ، صلاح ذهنى - رحمه الله -
كان قصاصا ممتعا ، وكانت لفتات ذهنه الالمعى شيئا ملحوظا فى
فى حياتنا الخاصة مبدعا اذا سخر ، سخيا اذا تناول الحديث أو
الكلام .. كان الحبيب الراحل الى جانبى فى كل المحن والارزاء
وكان عبد القادر السماحى ملحقنا السياحى فى ألمانيا الآن ،
بلسم الجراحى فى تلك الأيام ، لم تفرق قط منذ ولجت الاحزان
قلبى ، وكان دائما معسرا لا يفيق من الاملاق ! وكان شجاعا فى
تحدى الفقر والضيق شجاعة لم ترو على لسان ولم تذكر فى كتاب ..
دعائى الى السيئما ، واقترح أن نبلغها من الجيزة الى العتبة
سيريا على الأقدام حتى نسمر ونقطع الطريق ! ومال فى ناصية
الى بقال ، وعلمت أنه يحدث صديقنا مصطفى طه حبيب فى
التليفون ليقترض منه ريالا !!

والأدهى من ذلك كله أنى كنت مثله خالى الوفاض ، وذعرت
أنه لا يملك أجر الحديث فى التليفون وكان فى ذلك الوقت خمسة
مليمات !! ..

ورهننا البقال ، حتى جاء مصطفى وفك الرهن وأقرضنا
الريال !

ولن أفرغ من الف قصة للسماحى ، فقد كان فريدا فى خلق
المشاكل ومفتنا فى النظر الى الأشياء والاحياء ، وكم تولاه صلاح
ذهنى بالقفشات والحكايات ، وهو على سجيته يسخر من سخريتنا،

ويرانا فيما نزعهم ونقول صبية ينقصنا الفهم ويعوزنا الادراك ..
كانت أياماً ليس لها مثيل في سائر الأيام ..

كنت في تلك الفترة من مراحل التعليم ضائعاً أو كالضائع ، وكان
عمى لأمى وزوجه الطيبة يحاولان سد الفراغ الهائل الذى تركته
أمى بما أوليانى من عطف وإيثار .

وجاء الصيف ، فدعانى صديقى عبد المنعم البيه ، مدير البنك
التجارى الآن (والصديق) أبو بكر نور الدين الى ضيافتهما
في رأس البر ، وكانا طالبين في مدرسة التجارة العليا يجربان
حظهما في شئون التجارة ، حيث أقاما حانوتا لحسابهما هناك

وهناك رأيت فتاة راقنى فيها كل شيء ، وراقنى أن تكون
لها هذه الأم الصالحة وهذا الشقيق الذى ربطتنى به زمالة العمر

ورضيت الفتاة أن تكون زوجا لى حين اطوى مابقى لى من
شهور فى دراستى الجامعية ، فاذا فزت بالنجاح ، فزت بالحسينين ،
وتم قرانى فى سن مبكرة دون وعى أو تفكير ، وانما رغبة فى حياة
الاسرة التى عودتنى اياها أمى اكثر من عشرين عاما ، واستقرت
حياتى بهذه الزيجة عشرين عاما أخرى .

لقد ثرت على أيام الخطبة ، لا لأنها تحد من أحلام الشباب ،
بل لأنها تزدهم بالتكاليف ، وليس فى وسعى أن أصون ماء وجهى
الا اذا ملأتها بالخيرات ، وكيف لى أن أبلغ هذه الأمنية والاسرة
التي ناسبتها تعيش معا ، أم وأخ وأربع شقيقات ، وكل صاحب

طبع ومزاج، واحدة تحب الفستق ، والثانية تحب الشوكولاته ،
والثالثة تفضل الجاتوه ، والعروس لا تسيغ الا المارون جلاسيه،
وأهمهم - رحمها الله - كانت أخفهم ريحا ، فقد كانت تحب
اللب الأبيض لما فيه من فوائد للقلب والشرابين !!

وكنت أحمل فى زيارتى اليومية المتلاحقة لخطيتى مقداراً
من هذا اللب وهذه الحلوى .. لذلك كنت أرجو أن أفرغ من
أيام الخطبة الأنجو من مسئوليات هذه الجبهات المتباينة ذوقاً،
وأفرغ لمطالب الجبهة الأصلية التى من أجلها سعت ، وفى سبيلها
زدت الجهد فى الدرس والتحصيل

كنت كل يوم عند خطيتى الا أيام الجمع ..

كان يوم الجمعة بالنسبة لى ولسائر زملائى الأصدقاء فى كلية
الآداب يوماً مقدساً ، انه يوم العقاد حيث ندوته وما فى ندوته
من خير كثير

كان الأستاذ عباس محمود العقاد - ولا يزال - على رأس
أهل العلم فى مصر ، وكنت - ولا أزال - أحبه وأكبر فيه
جهاده فى التحصيل ، وجهاده فى حياة مصر السياسية ، وجهاده
الرائع الشامخ فى قيادة جانب كبير جداً من الدراسات الأدبية
العميقة التى لم يعرف لها الوطن العربى ضرباً ..

وكان مجلس العقاد لا يخلو من الفكاهات العميقة والنكت الرائفة
التى كانت تجرى فى مصر اذ ذاك مجرى الامثال ، وكنا نتناول

غداءنا عنده ، نحو عشرين أو ثلاثين من تلاميذه وحوارييه ،
ونخرج بعد العصر بحصيلة من الآراء والأفكار تهذب من
نفوسنا وتشذب من جهالتنا وتفتح لنا من آفاق الرأى والتدبير
ما كان مستغلقا علينا

كان يوم العقاد يساوى - فى ذمتى - دراسة شهر فى الجامعة ،
لأنه يوم حافل بالعلم ، وندوة زاخرة بكل جديد مفيد ، فيها
مهابة العالم وقدوة المجاهد ، ورصانة صاحب الرأى الذى يذود
عن رأيه ولو انتهى به الأمر إلى التشريد والسجون ..

انى أدين ليوم العقاد بكثير

لقد استقام عودنا فى الجامعة ، وبرزت رجوليتنا ، وانسابت
فى نفوسنا بعض العواطف التى لا تبرأ من البسوء ، كالغيرة
وما ينتج عن الغيرة من تصرفات

بهذا الذى حكيت بعضه ختمنا مرحلة من دراساتنا الجامعية ،
وهى مرحلة حاسمة فى تاريخ كل شاب ، بعدها تواجهه الدنيا
بما فيها من شرور وخيرات ..

في شهر يونيو ١٩٣٥ بدأت حياتي تمتلئ بالعبر والأحداث...
 في ذلك الشهر حصلت على درجة الليسانس ، وفي ذلك
 الشهر احتفلت بزواجي من أم البنين ، ولكن شيئاً واحداً في
 حياتي لم يجد فيه جديد ، هو الراتب الذي كنت أتقده كمحرر
 في جريدة كوكب الشرق .. أربعة جنيهات تدفع لي أقساطاً تبلغ
 أحياناً عشرة أقساط ! ..

وأسجل الحق .. أن « لطفى أفندي عبد القادر » مدير
 حسابات الجريدة سلمني راتبي في الشهر الذي تأهلت فيه كاملاً
 غير منقوص وفي أول الشهر ! وقد راعى الرجل هذا الطائف
 السعيد الذي غمر حياتي ، وحنأ على موقفي (كعريس) ذاهب
 يصطاف في رأس البر ، ولحياة الشاطئ وشهر العرس تكاليف
 لا يجدي معها نقد الراتب على دفعات ! ...

أقيم حفل الزواج في بيتين ، بيت للنساء ، وبيت للرجال ،
 بذلك قضى الأنسباء الجدد ، فقد كانوا إلى ذلك الوقت يحرصون
 أشد الحرص على تقاليد المجتمع التي تأبى الاختلاط وتعارفه
 في عنف وشدة ..

أما أنا فقد حاولت عبثاً أن أقنعهم بأن يقام الفرح في بيت

واحد ليسعد بنا أهلى وأهلها ، ويفرح أصدقائى وصديقاتها ،
وانها لفرحة العمر ، وما يجوز أن تكون السعادة فيها قسمة
ضيضى ، للنساء كل حواشيها وللرجال حوافيها

كان الرقص والغناء والطبل والزمر والزغاريد عند النساء ،
وكان الصمت والتثاؤب يسود مكان الرجال ، وكأنهم فى عزاء !
وانتصرت التقاليد فى ذلك اليوم ، ثم مضت الأيام فحطمتها
تحطيمًا ..

أقيم الفرح فى مكانين ، وكان نصيبى حيث اجتمعت السيدات ،
وأجلسونى أنا وعروسى على كرسيين عالين مذهبين ومكسوين
بالقطيفة الخضراء ، ولم أجد فى حياتى حرجا مثلما وجدت فى تلك
الليلة ، حرج القصير الذى يؤذيه القصر فى كثير من المناسبات !
فكنت اذا سندت ظهرى الى الكرسي تدلت قدمائى فى الهواء !
واذا اعتمدت على قدمي انهد ظهري من طول الانتصاب ! ..

وغنت المغنية ، ورقصت الراقصات ، وطال بى الانتظار لينفض
هذا السامر الثقيل ، وقد كنت ملهوفا على تلك الليلة وما كنت
أعلم انها مملة فارغة تافهة ، وخاطبة حين نحى أصدقائى عنى
وأبعدوا البعادا ، فتساءلت عن بقية « الاجراءات » فقليل ، طعام
وزقة ثم تعود الى كرسيك العالى حتى يطلع الصباح ! ..

وتناولنا الطعام ، الرجال وحدهم والنساء وحدهم ، وهنا
فرضت تقليدا على التقاليد ، هو أن تتناول زوجتى الطعام مع

صحبي من الرجال ، وكان هذا حدثا خطيرا في سنة ١٩٣٥

ثم نظمت الزفة ، وأشهد أنى لم أر من قبل زفة عروسين ،
وكنت أرتدى سترة (الاسموكنج) وهى أسخف لباس عرفته
فى حياتى ، فقد كنا فى الصيف وهى من الصوف ، وكان لها
قميص خاص بياقة منشأة حيرتنى حتى استقرت فى أزرتها
واستقام حولها رباط الرقبة الأسود ذو العقد الثلاث .. ونظرت
الى المرأة فاذا أنا قريب الشبه بحملة القماقم فى الجنازات ! ..

وارتدت العروس ثوبا مرصعا بالترتر الفضة ، وانتعلت حذاء
طول كعبه عشرة سنتيمترات ، وبالرغم من أننى كنت شابا أعنى
بأناقتى وفى وجهى نضارة ، وبى حيوية ونشاط ملحوظان ، فإن
جمال زوجتى كسفنى وخاصة حين ظهرت فى ثوبها البراق
ووجهها الجميل وقدها المياس كأنها تفحة من القدر رسمها فى
أيام وساعات ...

ومضت المغنية على نغم (التخت) تلف بنا (الفيلا) وتدور ،
مرددة المدائح والصفات الطيبة فى العروس ، واصفة جمالها
وخطوها ورشاققتها ، وتبخرها وتمخطرها ! وأخذت تقول
وتعيد ، ولم تجد المغنية لى عبارة تجبر بخاطرى أو تعلن عن
وجودى ، حتى بدوت غريبا وأنا الى جانب عروسى ! فوقفت
ضارب الدف ولاعب القانون عن عملهما ، وأمرت المغنية أن
تستحى ، فكل عريس له فى الزفة مقطع أو مقطعان ، والزفة

كادت أن تنتهي وليس لى فيها نصيب ولم يذكر عنى شيء ،
وما أظن من اللائق أن تمضى الزفة الى نهايتها وأنا فيها غير
موجود ؟! ..

وقالت بعض المدعوات .. ياله من قارح .. وقالت بعضهن
كلمات مدح وثناء ، وقلت أنا — بينى وبين نفسى — يا لى من
مجاهد ! حتى الزفة أجاهد فيها الأقال حتى ؟! ..

وعادت المغنية الى الغناء ، وغالت فى المدح والثناء ، ورددت
من عبارات المجاملة قدرا أو هن جرأتى وغمرنى حياء ما بعده
حياء ، وأسفت أن طالبت بحقى فى الزفة ، فقد كانت المغنية
تصف رجلا آخر ، خفيف الظل جميل الصورة تتخطف من أجله
قلوب النساء !!

وبعد أن دارت الزفة بنا عدة دورات ، عدنا الى (الكوشة)
وكرسيها البغيض ، وما أشبه الكوشة بحديقة الحيوان ، فلقد
كان المدعوون يتفرجون علينا كأثنا صنف فريد من الوارد
للحديقة فى صيف ذلك العام ؟! ..

ودعانى الدكتور طه حسين — وكان قد عاد الى الجامعة وولى
منصب العميد من جديد — دعانى عقب زواجى مباشرة ، وكان
يتهيأ للسفر الى أوروبا ، وكنت اذ ذاك من المقربين اليه المحبين
الى نفسه ، وكان لقاء كريما ، اذ شعرت ألقى موضع عطف
جديد ، لأن الرجل سألنى كيف رسمت لحياتى الجديدة بعد

أن فرغت من الدرس وبعد أن تأهلت في عجلة الملهوفين ..
و كنت أرجو أن أجعل الصحافة مهنتي في الحياة ، بيد أن
رواتب الصحفيين لم تكن تغرى على البقاء في المهنة الا مصاحفين،
أى عاملين في الصحافة من بعيد ، وكيف يقام بيت وتخلق أسرة
في أعطاف جنيهات أربعة تدفع على أقساط بعد الحاح منقطع
النظير ؟ ..

أظن أن هذا الذى كان يدور في خاطر الرجل الكبير وهو
يسألنى عما رسمت لحياتى الجديدة وخرجت من عنده بعد أن
أوصى بى سكرتير الجامعة ليعيننى فى إحدى الوظائف الخالية
بعشرة جنيهات ، تضاف اليها جنيهات كوكب الشرق الأربعة ،
وهذا دخل يحسد عليه صاحبه ، فانه يساوى الآن سبعين أو
ثمانين جنيها اذا روعيت تكاليف الحياة اليوم وتكاليفها فى تلك
الايام .

وعدت فى شهر سبتمبر من رأس البر لأشغل وظيفة (كاتب
تملى) فى قصر العيني ، وتملى هذه بشدة اللام تعنى كلمة
(دائم) فأنا كاتب دائم جعلوا اختصاصه أمور الحسابات ...
يالها من داهية ! كاتب حسابات لشاب لا يعرف فى الحسابات
شيئا ، ولا يفرق بين الاستمارة ٥٠ ع ح و ٦٢ مكرر ع ح !! ..
يالها من خاتمة مضنية مؤذية للدراسة التاريخ الحديث
والتخصص فيه على عمق ليس قليلا أو يسيرا

« كاتب تملى » وفى القصر العينى !! ... حيث المرضى والروائع الكريهة ومناظر الاطباء والمرضات والجرحى، والمتنيلات الصارخات للآئى يستقبلن كل صباح أمواتهن من القصر العتيد ..

« كاتب تملى » فى هذه الدوامة التى تقل أعصاب من قادت أعصابه من حديد ، وأنا انسان ان وصفوا له جراحة قريب أو غريب شعر بغثيان ورجفة ، وان أعد الطبيب حقنة لمريض فى البيت خرج منه جزعا لا يلوى على شىء !

أما بعد

فقد تبعت الوظيفة الجديدة مسئوليات أخرى ، اذ ألحقت بها خزانة من حديد فيها (السلفة) وهى مثبتة الى حائط فى حجرة سكرتير الكلية « على حسنى » ولم يكن مكتبى فى حجرة السكرتير ، بل كان مكتبى فى حجرة أخرى بين خمسة عشر مكتبا جلس اليها موظفون فى أحجام تملأ العين ، وكان مكتبى الى جوار طاولة رئيس الفراشين وقد اختص بطبع محاضر مجلس الكلية وأوامر ادارتها على (البالوطة) بعد أن يتناول مع سائر الموظفين الافطار اللذيذ المكون من الفول المدمس والبصل والسلطة والشطة ، وأحيانا تعمر صحاف الافطار بنوع من الطعمية حلو المذاق

لم يؤذنى ازدحام الحجرة بأدوات العمل من أقلام وأحبار ومطابع للبالوطة أو ضجيج الموظفين وطعامهم وروائح هذا

الطعام ! وانما آذاني وضيق صدرى قصة السلفة الراقدة فى الخزانة فى حجرة سكرتير الكلية ، فقد كانت الخزانة مثبتة بالحائط على ارتفاع مترين ، وقد عالجت عجزى فى هذه الناحية باستعمال كرسى أقفز عليه لاصل اليها ، بيد أنها كانت تستعصى على أحيانا ، وعالجت هذا أيضا بالالتجاء الى (ابراهيم أفندى) وكان موظفا ضخما رقيقا فاره الطول قوى العضلات ، يستطيع أن يفتحها وهو ثابت على الأرض فما به من حاجة الى كرسى وهو يكاد يبلغ فى طوله مترين !

ان المصيبة ليست فى الخزانة نفسها ، بل المصيبة فيما احتوت عليه الخزانة من مال ، كان فيها واحد وعشرون جنيها ، تشتري منها (القصارى) والأرانب والمقشاة وفرش البلاط وغير ذلك من تفاهات جديرة حقا برعاية متخرج فى كلية الآداب المفروض أنه درس التاريخ الحديث من الأعماق ! ...

ليست المصيبة أنتى توليت السلفة وأنا ثقة فى الجهل بشئون المال ، أو أنها فى خزانة على ارتفاع مترين ويستعصى فتحها فى بعض الأحيان ، بل المصيبة أن القانون المالى يتهمنى بالتبديد ان جاء مفتش المالية وجرد الخزانة فوجد فيها قرشا ناقصا أو قرشا زائدا ، فالعقاب مفروض فى الحالتين ، نقص مال الدولة حبة أو زاد حبتين ؟ ! ...

لقد أزعجنى أن ينطوى القانون المالى على هذا السخف ...

قلت لمسجل الكلية - رحمه الله - أفهم أن يعاقبني القانون المالى
إن أنا بددت قرشا أما أن يعاقبني اذا زاد فى الخزانة قرش فذلك
أمر غير مفهوم .. ونظر الى المسجل نظرة البرم الضيق الصدر
الذى لم يعتد تعقيا من موظف على أمر من الامور وقال : اذهب
الى مكتبك يا أفندى ولا داعى للفلسفة ؟ ...

ونفضت نفسى من صدرى ، وأخذت أناقشها على اعتبار أننى
أكبر من (أفندى) ... ماذا يكون أمرى من هذه الوظيفة
وهذا المسجل وتلك الخزانة ؟

وانتهيت الى قرار .

وذهبت الى (البك) المسجل فى الصباح ، وقذفت بالقرار
الذى تم عليه الاتفاق بينى وبين نفسى ... وقلت : ياسيدى ،
حيث أن القانون المالى قانون مغفل يؤثم من ينقص مال الدولة
كما يؤثم من يزيده ، وحيث أننى لا أستطيع تغيير هذا القانون ،
ووجودى فى الوظيفة يقتضى حماية الخزانة وما فيها من مال ،
وحيث أن هذه الخزانة ليست فى حجرتى بل فى حجرة سكرتير
الكلية ، فاما أن أتقل أنا الى حجرة السكرتير أو تنقل هى الى
حجرتى ، وأترك لك الخيار حتى غد ...

وفى اليوم التالى دعانى المسجل وأجلسنى الى جواره ، وأخذنا
نترجم معا محضر مجلس الكلية الى اللغة الانجليزية ، وفجأة طلب
زميلا من زملائى الموظفين ، وأخذ يسبه ويشتمه ولم يبق على

واحد أو واحدة من أسرته إلا ومس عرضه وعرضها من بعيد
أو قريب ثم طرده من الحجرة وقال : هكذا يجب أن يعامل كل
من يتفلسف من الموظفين ! ...

وبعد أن فرغنا من ترجمة محضر مجلس الكلية ذهبت الى
سكرتيرها وصبي المسجل وخذته ، وان لم يكن فظا أو غليظا
مثله ، بل كان مهذبا رقيقا بلسما للجراح التي تخلفها سياسة
المسجل وطباعه ، وقلت له : يا صاحبي قل (للبك) المسجل ،
اننى احتجاجا على ما صدر منه فى حق زميل من زملائى ، واهماله
لطلبى فى نقل الخزانة أو نقلى اليها ، قد قررت ألا أعود الى مكتبى
حتى تفسر لى أسباب هذه التمشيلية التي تمت فى حضورى ، ويتم
نقل الخزانة أو نقلى اليها ..

كان عميد كلية الطب فى ذلك الوقت على (باشا) ابراهيم
اعظم الجراحين الذين عرفتهم مصر فى عدة أجيال ، وكنت واحدا
من موظفيه ، غير أننى موظف مشاغب ، كما كنت بالنسبة اليه
عضوا مشاغبا فى مجلس اتحاد الجامعة وكان هو حيثنذ رئيسا
لهذا الاتحاد ...

وطلبنى الاستاذ العميد حين شكائى المسجل وقال فى ما قال
مالك فى الخمر ... وشرحت (اللبasha) العميد وجهة نظرى فى
قضية الخزانة والسلفة وبينت رأيى فى التمشيلية التي مثلها
المسجل وزميلي الموظف ، وفيها من بذاءة القول ما ينبغى أن يعف

عنه العاملون في الجامعة

ونظر الى على (باشا) وفي عينيه ما في قلبه من عطف وإيثار ،
ومنحني حق التغيب عن الكلية والعمل في جريدة كوكب الشرق ،
فذلك - كما قال (الباشا) - العميد مكاني الطبيعي وليس
مكاني السلفه والحسابات ، ولا بأس على الدولة أن تنقذني
الجنبيات العشرة أول كل شهر ، فاني أخدم مهنة على أي حال

وعجبت أن تكون وظائف الدولة هكذا خلعا يتصرف فيها
الرؤساء على هواهم وسرني ما صنعه (الباشا) ، فذلك غاية مناي
وأمنية حياتي ، أن أعمل في الصحافة وضمان الرزق موفور
وأؤكد !

ولكن الرجل كان أحصف منا جميعا .. كان يريد أن يبعدني
عن موظفيه حتى لا أث فيهم روح الثورة على النظم المعمول
بها ، وعلى (باشا) إبراهيم كان وئيد التطور وغير مكروب على
التعلق بجديد

وكان وجود موظف يحمل درجة الليسانس في قصر العيني
شيئا طريفا يخالف المفهوم في اختيار الموظفين ، وهم عادة غير
مؤهلين ، وان تأهلوا فما ينبغي أن يحدث في ذلك طفرة ويكون
منهم جامعيون ! ان ذلك في الحق شيء غير مقبول وغير
مهضوم !؟؟ ..

ورأى (الباشا) العميد في ندبي للعمل في كوكب الشرق

اغلاقا لباب يأتى منه الريح ، فمن يدري ؟ أبعيد على هذا
الموظف المشاغب أن يذهب الى جريدته فيكتب فى قصر العيني
وادارته ما يفسد هدوء العاملين فيه ، الراضين عن سوءاته ،
المؤمنين بأن ما فى القصر هو خير ما يكون ؟



أمضيت سبعة أشهر فى قصر العيني (كاتب تملى) فى الدرجة
الثامنة براتب شهرى قدره عشرة جنيهات ، وكنت أسكن فيلا
فى حدائق القبة وأملك سيارة صغيرة ، وكانت تقوم على خدمتنا
(أم أمنية) وهى (دادا) زوجتى ومرضعة شقيقتها من قبل ،
وكانت الدادا مسرفة اسرافا ملحوظا ، اذ كنا نعطيها للصرف
على طعامنا عشرة قروش يوميا ، وكانت العفارىت تركب هذه
القروش العشرة ، فتضيع كلها على اللحم والسمن والعيش
والخضروات والأرز والفاكهة

كانت القروش العشرة مالا كثيرا فى تلك الأيام !

استقلت فى نهاية الشهور السبعة من وظيفتى العتيقة ، ودهش
كثيرون لهذه المغامرة الخطيرة فقد كانت الاستقالة من عمل
حكومى مغامرة وخاصة اذا كنت على درجة دائمة ، وكانت
الدرجة الثامنة بجنيهااتها العشرة فى تلك الأيام وظيفة يسيل من
أجلها لعاب مئات من الزملاء !

واستقلت باتفاق مع صديقى فريد زعلوك وكيل اتحاد الجامعة
والطالب بكلية الحقوق ، ونور الدين طراف سكرتير الاتحاد

والطلاب بكلية الطب ، فقد اختاراني لادارة هذا الاتحاد براتب خمسة عشر جنيها ، فضلا عن سلطات ملحوظة في ادارة الاتحاد والقيام على خدمة لجانته المختلفة وهى لجان كان الى فيها أيام التلمذة نشاط ملحوظ

وكان الاتحاد — كما سجلت من قبل — هيئة موجهة لحياة الطلاب الاجتماعية والرياضية ، والسياسية أحيانا ، وكان من بين أعضائه ممثلون للأساتذة الجامعة وهم على (باشا) ابراهيم والدكتور على مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم والدكتور طه حسين عميد كلية الآداب والدكتور محجوب ثابت عن الخريجين والدكتور عبد الرزاق السنهورى عميد كلية الحقوق والاستاذ محمد شفيق غربال أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب ، وبعض من شباب الأساتذة عن الكليات الجديدة التى ضمت الى الجامعة فى سنة ١٩٣٦

وشهدت فى هذه الوظيفة الجديدة تيارات الغيرة والحق تدب فى نفوس بعض الاساتذة ، ومنذ ذلك التاريخ تبدل رأيى فى أنصاف الآلهة ، وعلمت أن أساتذة الجامعة يجرى عليهم قانون الناس ، الناس بما تضطرم به قلوبهم من غل وموجدة

وأخطر ما رأيت فى هذه الحقبة من معادن الرجال تلون بعض هؤلاء الرجال ، وخروجهم على المألوف من القيم الأخلاقية ، وتناقضهم مع ما يكتبون أو يقولون ، ففى غمرة الجهاد الذى

كانت تعيش فيه مصر من أجل حريتها واستقلالها ، وتحمل بغض هؤلاء الأعلام المتاعب لمشاركتهم في هذا السعى الحميد ، رأيتهم يأترون بلبيل للقضاء على حرية اتحاد الجامعة ، وقد تمكنوا من قص ريشه وتقليم أظافره ، وهم الداعون إلى الحرية بلا قيد ، الساعون إلى انطلاق النفوس بلا تخرج ، الساخطون أبداً على كل ما من شأنه أن يحول بين الإنسان وحق التعبير عما يريد

وأسوأ ما في تلك المؤامرات الوسائل التي اتبعت في حياكتها، وأخشى أن أذكر طرفاً منها فأكشف عن عورات من ستر الله عوراته ومضى في ذمتنا جديراً بالذهب حين تقوم معادن الرجال !!

ما رأيت رجولية الرجال في الذود عن فكرة من الفكر مثلما رأيتها في نور الدين طراف وفريد زعلوك ، وهما خصمان من الناحية السياسية العامة إلا أنهما قرينان متشابهان في الخلائق والصفات كلما جد الجسد واقتضى الدافع البذل والتضحيات ، وقد رأيتهما يتحديان القدر في تحدى بعض هؤلاء الأساتذة الذين شنوها حرباً عاتية على حريات الاتحاد وسلطاته الواسعة لقد فرحت بالصديقين في المعركة ، وكنت - بحكم الوظيفة - لا أملك إلا أن أبارك كفاحهما من بعيد ..

كان اتحاد الجامعة في حياتي مفترق طريق

كنت أريد أن أكون صحفياً ، بيد أن جريدة كوكب الشرق ورائبها الضئيل الواقف عند الجنيهاات الأربعة لا تنقص ولا تزيد ، حفزنى على تجنب المهنة والبحث عن القوت فى عمل آخر يحسن الوزن والتقدير ، وكنت قد عزمـت بعدئذ على أن أكون موظفاً فى إدارة الجامعة وأمضى فى السلك قدما ، غير أن ذل الوظيفة وما شاب جوها من مسجل وخزانة وسلفة وغير ذلك من شجون ، جعل النأى عن قصر العينى ضرورة تملئها حاجة النفس الى راحة القلب والضمير •

ورضيت العمل فى اتحاد الجامعة ، فلما أصبحت ورأيت أساتذتى من أهل العلم والرأى يلجأون الى ما يلجأ اليه عامة الناس ، ويصطنعون الحياة كما يصطنعها غيرهم ، تحطم التمثال الذى كان لهم فى نفسى ، وهوى أنصاف الآلهة كما تهوى الشهب فلا يعرف لها قرار ! . . .

ثم فرغ أصدقائى أعضاء مجلس اتحاد الجامعة من دراساتهم الجامعية فأصبح طراف سكرتيرا لرئيس مجلس الوزراء ثم طبيبا فى الصحة ، وأصبح فريد زعلوك محاميا ، واختلف الآخرون الى وظائف هنا وهناك ، وجاء الى المجلس أعضاء جدد يمثلون النظام الجديد فى تفاهته ويأسه وخنوعه

لم يكن فى وسعى أو فى طبعى أن أعيش فى جو من التفاهة واليأس والخنوع . . .

وفرغت فى ذلك الحين من اجتياز امتحان الماجستير عن جانب
من تاريخ صحافتنا ، والتقى حصولى على هذه الدرجة العلمية
بالتفكير الجدى فى انشاء معهد للصحافة فى كلية الآداب

ودعى محمود عزمى وكنت أعرفه باسمه دون رسمه ، الى
تنظيم دراسات هذا المعهد ، وقد استطاع أن يرتب له ويعد
المواد الملائمة لنجاحه ، وجعل طلابه من حملة الليسانس أو
البكالوريوس بعد أداء امتحان عسير

وفى ذلك الوقت كانت تربطنى بالاستاذ أحمد الصاوى
محمد صداقة ومودة ، وهو فى الوقت نفسه صديق للدكتور
محمود عزمى ، فاقترح عليه أن يستعين بى معيدا فى معهد الصحافة

وقابلت محمود عزمى فى (بار اللواء) وهو مكان كان يلتقى
فيه عادة الصحفيون والرقباء - وكنا فى سنة ١٩٤٠ وفى أول
العهد بالحرب العالمية الثانية - وتحدثنا وكأنه يجرى لى
اختبارا ، وأعجبنى الرجل وأحبته ، وقد قدبنى معيدا له ،
وكنت بذلك فى تاريخ معهد الصحافة أول معيد

ومن عجب أن مثل هذا الرجل العظيم لم تعرف له الصحافة
مقامه المقدر الى اليوم ، ولم تسع لتخليد ذكره فى لوحة أو
تمثال أو كتاب ، ومن عجب أن هذا الرجل العظيم الذى أنشأ معهد
الصحافة وذاذ عنه خصومه ووضع له الأسس وأرسى القواعد لم يذكره
هذا العهد أو هذا القسم بكلمة خير ، كأن نكران الجميل طبع

فى أهل العلم ، وان علمونا أن نكران الجميل لا يكون الا فى
القلوب التى خوت من كل معنى جميل

وقد بدأت مع محمود عزمى فى معهد الصحافة كما يبدأ
الصبى المؤمن بأستاذه ، وأخذت أدنو الى قلبه كما يدنو الابن
من أبيه ، فلم تمض شهور الا وأنا جزء منه فى كثير من الآراء
والافكار

كنا نختلف فى السياسة وفى الدين ، فهو لم يكن يؤمن
بالوفد ، وأنا كنت قريب الصلة بخيار الوفدين ولى رأى طيب
فى منهاج سياستهم العامة ، وكان هو لا يؤمن بدين فالدين
عنده المعاملة ، وأنا شاب مؤمن بدينى وأتعصب له أحيانا تعصب
الجامدين

وفىما خلا أمور السياسة والدين كنت أحب كل شىء فى عزمى
وأرى فيه قدوة تحتذى وخاصة فى منهاج الدرس ، وتبرمه
الشديد بأوضاعنا الاجتماعية والسياسية التى ترضى لشعبنا هذه
الحياة الذليلة التعسة الخالية من كل معنى الحياة

وكانوا يتهمونه بالشيوعية ، وأنه زوج لسيده روسية حمراء
.. ولكن الرجل لم يكن شيوعيا بل كان يأمل أن يعيش كل
الناس فى مستواه ، وكان هذا مطلباً عسير التحقيق فى أى مذهب
سياسى ، لأن حياته لم تخل من الترف لله ولزوجته ولكلبته
بوشكلا !!

وكان محمود عزمى معدنا طريفا غالبا يستحق تقدير الوطن
... كان يكره الملكية ويعتقد أن هذا النظام البغيض هو أس
تأخرنا ، ويؤمن بأن أخلاق الشعب المصرى ستكون جديرة
بالذكر والافتخار ان جاء يوم ونحى هذا الشعب عن رقابه
كابوس الملكية وخاصة كابوس الطفل فاروق ! ...
وعجبت للرجل ...

كان رقيباً للصحف فى أعطاف رقابة انجليزية ، وكان
مستشارا فى الحكومة ، وكان أستاذا للفن الصحفى ، ومع ذلك
فهو يجهر بهذه الآراء لا فى خفية ، بل علانية فى بار اللواء ،
وفى محاضرات المعهد ، وفى الطريق العام ...

كان يقول : يا أستاذ أنا مع الغرب حتى ينتصر الروس
والامريكان ، وأنا فى الحكومة بأرائى هذه وأفكارى هذه
حتى تضيق بى الحكومة ، وأرجو أن تكون معى فى المعهد
حتى نمكن لهذه الأفكار فى ضائىر هؤلاء الاولاد ! ...

وبذلك فسر لى لماذا كان رقيباً للصحف ، وماذا يعنى من
اقباله على معهد الصحافة وليس له فيه رزق موصول جدير
بهذه العناية وهذا الاقبال .

لم تخل سيرة عزمى من مأخذ، لانه انسان ، وكل انسان عظيم
تعد هفواته وتحسب له سوءاته ، وهى عادة كم قليل ...

أنا مدين لهذا الرجل السنوات التى جاست فيها الى جواره

معيداً في معهد الصحافة ، فقد تعلمت كيف يملك الاستاذ المحاضرة والمستمعين اليها ، وكيف يجادل ويحسن الجدل ، وكيف يكون جريئاً في الرأي ، وكيف يعترف بالخطأ ان كان ثمة خطأ في فكرة أو معنى

لم يكن يبخل على التشجيع ، وكان يقول لتلاميذه ، وكانوا بضعة طلاب كبار وطالبة واحدة ، وكلهم أكبر مني سناً وأنا أحدثهم تخرجاً في الجامعة ، كان يقول لهم : اذا ذكرنا تاريخ الصحافة المصرية فأنتى مرجعه ، والله ليأخذ مني ليعطيهم ، .. وكم أخجلنى تواضعه . . .

أين بعض الأساتذة من عزمى ؟

لقد قرأت كتاباً عن الصحافة المصرية ، فرأيت مؤلفه قد نقل عنى بعض فصوله نقلاً ، أو لعله لخصها فأحسن تلخيصها ، وما ساءنى الا أنه نسى أصالته العلمية ، فبخل بالاشارة الى جهدى ، وهو جهد أخذ منى معظم عمرى . . .

أعود الى من عف عن أن يحجب عن صاحب الفضل فضله ، أعود الى عزمى وكيف وجهنى وأحسن تدريبي ، فقد كان يكلفنى القاء بعض الدروس عنه ولا يتركنى حتى لا ياكلنى الأولاد على حد تعبيره ! ولم يتركنى ألقى محاضراتى وحدى الا بعد أن اطمأن الى أننى أخذت نهجه وعرفت طريقته ، وملكيت جزءاً يسيراً من طرائق جدله وتقاشه

أمضيت ثلاثة عشر عاما أستاذا في معهد الصحافة ، وهنا أصدرت أحسن كتيب ، وكنت حريصا أشد الحرص على أن آخذ سميت الأستاذ الذي يتخرج من الكبيرة والصغيرة على السواء ، ويأبى أن تبدو له عورة في عمله أو خلقه ، أو تحوم حوله شبهة تقوى على احراقه أو مس ظفره

وشعرت في الجامعة بحريتي كأنسان مفكر ، أذيع الرأي الصحيح ، وأقول كلمة الحق ، وأحكم في الأمور بصدق في غير تهيب أو حياء أو وجل

وكنت قد حصلت على درجة الدكتوراه ، ثم مضت الأيام تجرى وشغل عزمي بواجب جديد لوطنه في هيئة الأمم فأخذت مكانه في سياسة شئون المعهد ، وكطبعننا في بلادنا لم يسفح كثيرون أن تلقى المسئوليات على كاهل شاب بدافع من الحق أو الغيرة أو بدافع من حب البقاء ، البقاء للشيوخ وحدهم ، وهذه جيلة الاجيال المريضة التي تريد للحياة أن تقف دون تقدم أو ارتقاء

ان فرق الزمن عامل هام في تطور الأحياء ... ان الاجيال المقبلة خير ألف مرة من أجيالنا ، وإذا لم يصح في هذا الامر الحساب عادت الدنيا القهقري .. وهيئات .. ان عقارب الساعة لن تعود الى الوراء ..

وفي ذلك الوقت - أي من نحو خمسة عشر عاما - برز

شباب بين شباب الأساتذة لم تر له كلية الآداب نظيرا ، لا في خلقه
ولا في علمه ، ولا في رجوليته التي تضاءلت أمامها رجولية كل
أستاذ وعميد مر بتاريخ تلك الكلية
الدكتور زكى محمد حسن

لم يكن قد بلغ الأربعين وله في فنه وعلمه خمسون كتابا
ضخما وبجثا عظيما عميقا باللغات العربية والانجليزية والفرنسية
والألمانية والإيطالية ، وهى مراجع وبحوث لم يقف فضلها عند
جامعتنا بل كانت المعين الذى يعرف منه أساتذة العالم فى هذه
الفنون

كان زكى حسن محسودا من التافهين ، مكروها من جميع
أساتذة المدرسة القديمة بلا استثناء . . انه شئ جديد
فى كلية الآداب . . انه علم يلتف حوله كل شباب الاساتذة
والمعلمين . . انه العلامة العظيمة للجيل الصاعد من أهل العلم . .

انه لعلى خلق كريم . .

لقد أحببته حين استجاب هواى لهواه ، والتقى ربحى
بريحه . . ذلك أننى لا أحب الكذب ولا النفاق ، ولا أخاف ،
وهو أدق منى فى كل تلك الخلائق والصفات

كرهه بعض من قدمته المصادفات ، وأعلته التوصية ، وصدرته
الوساطة الصغيرة ، وكانت كل بضاعته لبلوغ هذا الشأو
الملحوظ ، الكذب والنفاق ودناءة النفس وخسة الطباع

هؤلاء هم الذين لا يستجيبون لهوى «الصاحب العظيم العالم
الفذ الذى فقدناه» ..

لقد صاحبت زكى محمد حسن أستاذًا وعميدًا كما صاحبت
بعيدا عن كلية الآداب ، فلم أر فيه سوءة ، الا أن تكون الأخلاق
القوية والشهامة والعلم الغزير ، وأخذ الأمور بجذو وعق من
سوءات الاساتذة والمعلمين ! ..

انى أعلم ما ستركه هذه الكلمات فى نفوس بعض الناس
.. سيفرح بها كثيرون من أصدقاء أعلم من ولى مناصب العلم
فى كلية الآداب ، لأن فقيدنا العظيم زكى محمد حسن تناولته
يد الجحود ونكران الجميل ، فحاولت أن تطمس فضله ، وتخفى
شأنه ، ولكن هيهات .. هيهات أن يحجب الجحود ونكران
الجميل خمسين بحثا ضخما عميقا تتداولها فى بقاع الأرض
خمس لغات ! ..

لقد كان زكى حسن فلتة من فلتات الزمن ، وسيبقى فى عين
الزمن ما بقى الكون ، وبقى فى الكون انسان

الصحيح اننا تقسو على أنفسنا ونهد أعصابنا حين ينساب
الى قلوبنا الحسد .. ان الحياة أعز على من يعرف كيف يحياها
من أن يشغلها بالحسد وما يخلفه الحسد من كراهية وحنق
وموجدة

انما أنت تقسو على نفسك وتفسد صفاءها ان حسدت ،

فالحسد داء يمرض الله صاحبه قبل أن يصيب خصمه بشر أو سوء

كان لنا زميل في كلية الآداب أخذ يحارب صاحباً له في رزقه وعمله ، فلما انتصر الزميل ونحى صاحب عن وظيفته ، سأله :
ما حظك في هذا كله ؟ فأنت في قسم غير قسمه ولا منافسة بينكما في ميدان العمل أو في أى شأن من شئون الحياة ؟

قال الزميل - غفر الله له - يا أخى عنده سيارة ويسكن عمارة من أفخم العمارات ، ماذا هو حتى لا نكون نحن كما هو !!؟

ولا يزال هذا الزميل يقسو على نفسه ، لأن صاحبه نحى عن عمله ، فإذا الله سبحانه وتعالى يفيء عليه من النعمة أضعاف ما كانت له .. كان يسكن عمارة فأصبح يملك عمارة ... كان صاحب كرسي في كلية الآداب ، فإذا هو اليوم يملك في كل بلد عربى كرسياً يترضاه ويهواه ! ...

أما الزميل الكاره الحسود الحقود الذى قسا على نفسه فقد ارتفع ضغطه وجرى السكر في دمه ... شفاه الله وعافاه ! ..
النجاح شيء جميل ، ولكن الناس لا يتركون لتناجح فرصة التأكيد والتبريز ...

ان المتخلفين يسرهم دائماً أن تبقى الصفوف واقفة ، فإذا تحركت صرخوا اذ لا ينبغى أن تسير وهم عن لحاق الركب عاجزون ...

لقد صرخوا وعلا صراخهم كلما أصاب واحدا منا فجاح أو
توفيق

اننى أرى فى العمل لوقا من ألوان العبادة اننى أكره
الاجازات لان فيها البلادة ، ولا أفهم أن يسترخى انسان ساعة
وفى مقدوره أن ينتج ويفيد ... ان الراحة عندما تنام ، وفى غير
هذا الوقت ما ينبغى أن نسكن أو نهذاً الا أن نكون من أصحاب
الحس البليد

كنت مدرسا نشطا فى سنة ١٩٤٥

غيرى ملاً الفراغ بلعب النرد أو الورق أو السهر أو الزيارات،
وملأته بالعمل الذى أحبه وأخلق فيه

انصرفت الى تحرير مجلة نسائية ، وأشرفت على اصدار مجلة
للأطفال سمينها (الكتكوت) فصرخ المتخلفون كيف لهذا
الشاب أن يفيد ويستفيد ؟ !

وذهبوا الى مدير الجامعة وفى يمينهم قالة السوء عن أستاذ
الصحافة ، كيف يخرج على تقاليد الجامعة وآدابها ويشغل
بالصحافة ؟ !

وطلبنى المدير

— هل أنت الذى تصدر مجلة الكتكوت ؟

— نعم .

— هل يليق بأستاذ أن يصدر مجلة للأطفال ؟

— «الرأى عندى أن اصدار مجلة للأطفال لا يقل قدره ولا شرفه عن اصدار صحيفة كجريدة الأهرام .

— أما وجدت أكرم من لفظ كنتكوت ؟

— ان الكنتكوت لفظ دقيق لطيف لكل شىء صغير ، وهى مجلة للأطفال ، وكل طفل ... كنتكوت !!

— أما كان يحسن أن تختار للتطبيق العملى مجلة غير مجلة للأطفال ؟ .

— اننى تلميذ سعادتك ... فأنت أعظم طبيب يحسن علاج الاطفال فى مصر ، اننى انما أحاول أن أنهج نهجك وأقفو أثرك ! ...

وهنا وقف « سعادة » المدير فأنصرفت ، وبعد أيام نقلت من كلية الآداب ...

كنت أظن أن نقلى من كلية الآداب جاء تحقيقا لرغبة مدير الجامعة الذى ساءه أن يشغل مدرس الصحافة فى كلية الآداب وقته وفنه فى اصدار مجلة للأطفال ويسميتها الكنتكوت !

والصحيح أننى نقلت من كلية الآداب لأننى سجلت كلمة حق فى كتاب

تضمن كتابى فصلا عن الصحافة فى عهد الخديو اسماعيل ، ذكرت فيه أن الخديو المذكور كان « ضرورة لمصر بخيره وشره » وما كنت أعتقد أن التجسس على الأساتذة يبلغ هذا القدر من

العناية حتى تضبط لهم عبارة في كتاب ، وهى عبارة عادلة تضع
الخديو المذكور في تاريخ الصحافة المصرية في مكانه الصحيح

نقل الكتاب الى وزير المعارف ، فنقله الوزير الى القصر ،
فصدر الامر بنقله من كلية الآداب ، لأن الخديو اسماعيل كان
ضرورة لمصر لانه الخير كله والفضل كله !! وكل من يحاول أن
يخدش هذه السيرة العطرة أو يترك على آثارها الغبار غير جدير
بأن يسان له مقام ؟ ! .

ونقلت في (هوجة) التصفية ، وكانوا يقصدون بالتصفية ، نقل
غير الصالحين من الاساتذة والمعلمين بمناسبة تطبيق كادر القضاء
على أعضاء هيئة التدريس في الجامعة !

وبالطبع كنت واحدا من غير الصالحين وعددهم سبعة وعشرون
أستاذا ومدرسا

ثم سقطت وزارة صدقي (باشا) وجاءت وزارة أخرى وفيها
وزير للمعارف جديد ، راجع التصفية فأجرى فيها (تصفية)
أخرى ، عاد على أثرها الى الجامعة ستة وعشرون أستاذا ومدرسا
من المنقولين ، وكنت واحدا من العائدين ! !

ومع هذه الهزات الخطيرة في حياتنا العلمية ، كنا نتج وتؤلف
ونعلم بشرف وأمانة

كانت أم البنين - رحمها الله وغفر لها - تريد أن تكون حياتها كلها ترفاً ، وتريد أن يتحدث الناس عن هذا الترف ، وقد ورثت من طباع أبيها الشيء الكثير فقد كان جميل الصورة أنيق المظهر من أبوين تركيين على ثراء عريض أخذ حياته في بذخ ، وقطعها ركضاً يغترف من الدنيا ما في الدنيا من مباهج وترف ، وقد كلفه ذلك كل ما ورث من مال وأرض وعقار ، ثم بكر في الرحيل إلى جوار ربه وهو في شرح الشباب .

وكانت أم البنين صورة بديعة لأبيها ، وكانت تزعم أنها لن تعيش طويلاً ، وخاصة بعد أن مرضت مرضاً خطيراً في مطالع الحرب العالمية الثانية ، وقمنا جميعاً أنا وصحبي وأهلها على خدمتها ومعالجة مرضها الذي حشدنا لم خيرة أطباء مصر فقد كانت أم البنين شيئاً عزيزاً علينا ، وكانت ورثة الأسرة ، وكانت سيدة مجتمع نادرة المثال .

كانت لي مكتبة تضم ألفى مجلد في التاريخ والأدب والاجتماع معظمها من المراجع النادرة التي أفاخر بها مكاتب ألف أستاذ وأستاذ وقد بعث المكتبة لأتقد الأطباء ما يستحقون .

وكانت لي سيارة جملة كلفتني جهد كتابين ، سهرت لتأليفهما شهوراً فبعتهما لاسد بعض المطالب التي كان يفرضها

علاجها من المرض الخطير •

لقد كانت أم البنين أعز من المكتبة وأعز من السيارة ، وأعز من كل شيء عزيز ♦♦♦♦

وكان صحابى يزورونها فى كل يوم ، وبعضهم يحمل الفاكهة النادرة ، أو الطيور السميكة أو غير ذلك من ألوان الطعام ، فقد كان مرض أم البنين يحتاج الى طعام دسم وأكل كثير ، وكنا فى حرب ، وكل شيء فى زمان الحرب ثقيل التكاليف ♦♦♦

وكان أهلها يقدمون (الخدمة) وهى على أى حال ليست بالشىء القليل ! وكنت أشارك الأهل فيما يصنعون ، وأذكر أنى بقيت عند قدميها تسعين يوما لا أعرف الشارع أو أزور أحدا حتى اجتازت أول مراحل النقاهة من مرضها الثقيل

وشفيت أم البنين ، فاذا هى سيدة على حياتنا جديدة ، يطوف بها دائما طائف يزعجها ويزعجنا ، فقد كانت واثقة أنها لن تعيش ♦♦♦♦

وخشينا أن يصدق حسها ، فلم نرد لها طلبا ، ولم نعقب على رأى لها بنقد ثقيل أو خفيف ، فقد أصغيت الى مطالبها فى عطف وإيثار حتى سماني أصدقائى بمحقق الأوهام وحالب اللبن من العصفور !! ♦♦♦♦

ذهبنا مرة نشترى سيارة صغيرة فتعلقت بأخرى كبيرة أنيقة ، ورضخت لرغبتها خشية أن تموت وفى نفسها أمنية لم تتحقق ،

وكلفنى ذلك كل ما تقدمته على تأليف كتاب ضخيم لجريدة الأهرام ،
وأكملت جزءا من السيارة بأربعين حديثا أذيعت لى فى اذاعات
الشرق والغرب ، ثم تبقى من ثمن السيارة بضع مئات من
الجنيهات سددت على أقساط كنت أسعى لتحصيلها كأنى مسوق
بنوت أو كرباج !

وقالت أم البنين : هذا الأثاث قديم لا أحبه ، وهذه الشقة
ثقيلة لا أبغها ... وانتقلنا الى شقة جديدة فى مصر الجديدة
ومعها أثاث جديد ، ولم تمض سنة الا وانتقلنا الى الزمالك بأثاث
جديد ، ثم الى حدائق الاورمان بأثاث جديد

ألست محقق الاوهام وحالب اللبن من العصفور ؟ ! ...

وسافرت معى أم البنين الى أوروبا حين وضعت الحرب أوزارها ،
وكنت مدعوا من اليونسكو ، ولى على ذلك منحة سخية تضاف
الى راتب الأستاذية ، فاشتريت أم البنين بمئات الالوف من
الفرنكات ثيابا جديدة تفاخر بها سيدات مصر ، وعدنا الى القاهرة
مدينين بألاف أخرى من الفرنكات !

كانت أم البنين كل شىء عندى ، وكنت لها ولبعض أهلها بما
تملكه يمينى من خير كثير أو قليل ، وكأنتى مقطوع من شجرة.
ليست لها فروع أخرى أو جذوع ، مع أن أهلى يسد ظلهم
الشمس ، وهم يشرفون من ينتسب اليهم ، بيد أن أم البنين كانت
كن شىء عندى ! ..

ماذا يقول الناس عنى ؟

الله الحب ... وليس غريبا أن يحب الانسان زوجته الى هذا
المدى ، أليست أم البنين ؟ أليست هى شريك عمرى وكأنها بنتى
وأختى ؟ أليست هى التى ملأت على الدنيا بضجيجها وصخبها
وانتشلتنى من الوحدة التى خلفتها أُمى فى قلبى الحزين ؟

لقد كانت الى جانبى فى جهادى ، وكل جهادى فى التحرير
والتحرير والتأليف ... صحيح أنها لم تكن تجيد القراءة أو
تحسن الكتابة بيد أنها كانت نفسا دفاعا وشخصية طاغية قوية
تلزم الناس احترامها وتوقيرها .

كانت أشبه بملكة لها الأمر وعليها الطاعة ! ...

كانت تزهو بما أصنع ، وتفرح بالكتب التى أصدرها وان لم
تقرأها ، وتمر على ما أنشئ من مطابع وصحف هنا وهناك فتفخر
بما ترى وتسمع وان لم تفهم شيئا فى هذه الشؤون

كانت تعلم أن نجاح زوجها الذى يتحدثون عنه فى المجالس أو
ينشرون عنه فى الصحف سيلد الذهب والفضة ، وهى قادرة على
احالة هذه المعادن النفيسة الى أحذية وفساتين وعطور ! وإذا
بقيت منها فضلة فلكل منافقة من الأهل والصاحبات نصيب ! ...

وحين نزلت بى الشدة كنت غارقا فى الديون ، فحزمت أمرى
وعزمت على أن أقتصد الدائق والسحتوت لتكون درعا فى الايام
السود ، ولم أعد أصيخ السمع اليها وهى تحدثنى عن قرب

موتها ... ومنذ ذلك التاريخ تبدلت الملكة الرقيقة الأنيقة
الونيسة الى شيء آخر

ثم مضت عني ، وفي عيني دمة ، وعلى ذكراها خوص وريحان ،
وفي خاطري أبدا دعاء لها بالرحمة والغفران ! ...

كنت سعيدا في كلية الآداب بما قسم الله لي من حظ موفور ،
وكدت أذهب عنها مرتين ، مرة سنة ١٩٤٣ حين فكر وزير صديق
في نقلني الى وزارة الشؤون الاجتماعية ، وقد اعتذرت عن العرض
في ذلك الحين ، ولم يقدر الرجل عليها في المرة الثانية سنة ١٩٥٠
لان الوظيفة التي عينها لي كانت وظيفة مدير المطبوعات والنشر ،
وهي وظيفة حساسة تحتاج الى ايمان بالحاكم واعتقاد شديد في
رسالته ، ولهم آكن هذا الرجل الذي يرضاه رجال حزبه ، فلست
ذاهبا اليهم في الرأي وان لم أختلف معهم في النظر الى المعالي من
الأمر ...

والحق ان الوزير الصديق كان رجلا واسع الافق في سياسة
الدولة ... كان أصدقاؤه ومعارفه من غير حزبه أكثر من أصدقائه
ومعارفه الحزبيين ، ولئو كان بيده لملأ الوظائف الكبيرة بكل خير
واستعان في شئون الحكم بكل منتج ومفيد ..

وكنت في محاضراتي أواجه بالمناقشات السياسية ، وتدريس
الصحافة وتاريخها وفنونها يفرض هذه المناقشات ، وكنت أعلم
أن من بين تلاميذي طلابا من كل مذهب ودين ، وكان البعض

يضايقه نقدى لسياسة الحكم من وزارة وبرلمان وتعقيبى باللائمة على بعض الوزراء وبعض النواب ، اذ فجعتنى أن أجد من بين أعضاء البرلمان صاحباً لى يقف وسط النواب ويدافع عن (الطافية) والطافية أحط أنواع الخمر والمسكرات !!

لم تكن تربطنى برجال السياسة روابط فيما خلا زملاء العمر الذين استغرقت حياتهم السياسة فكانت لهم أقرب ما تكون الى الحرف التى يعيش لها الناس

وقد زارنا فى كلية الآداب وزير الداخلية ابان الحرب العالمية الثانية ، وكنت الى قلبه قريباً ولى به صلة الصاحب والصديق ، وسألنى أن أسأله شيئاً .. فقد كان الرجل اذ ذاك أقوى من هارون الرشيد ؟ وقلت : أريد ترخيصاً بمجلة أصدرها وأمرن فيها تلاميذى ، فسألنى عن قدر الاعانة المطلوبة وكميات الورق التى أحتاج اليها ؟ وشكرته ثم قلت : لا أريد الا الترخيص .. فربت الرجل على كتفى فى فرحة الذى عثر على شيء فريد ..

نعم ، لقد كنت شيئاً فريداً ، اذ لم أظن أن وزارة الداخلية تنقد الصحف الاعانات ، ولا أعلم أن بعض الصحف تباع ورقها فى السوق السوداء حتى استطاع بعضهم أن يقتنى الدور والأطيان !

وكنت كلما قصصت على صاحب لى عرض الوزير وأجابتنى على العرض قال : ساذج وعبيط .. وثبت أنى كما يقولون ، لان

الترخيص بالمجلة صدر فوراً ، ولم تصدر المجلة قط لأنها تحتاج الى اعانة داخلية وورق التمويل !!

لقد كانت الصحافة ، وكانت عضوية البرلمان ، تجارة نافقة ابان الحرب العالمية الثانية ، تجارة امتعتها معظم رجال السياسة وجميع الأحزاب ومعظم رجال الصحافة ، وان لم تخل تلك الجهات من النابهن الاشراف

وكنت في ذلك الوقت أشرف على تحرير مجلة نسائية ، وهي المجلة النسائية الأولى التي عرفها الشرق العربى كاملة المعانى ، مستكملة كل أسباب النجاح ، وهي شىء عظيم فى تاريخ الصحافة المصرية ، وعلى صفحاتها برز كتاب كثيرون وفنانون يشار اليهم فى كل حين ، وكان من بين من تجلت ملكاتهم صديقى كمال الملاح الفنان الموهوب ، وكنت أرجو أن يمضى كما كان ، مفتنا بريشته لا كاتباً بقلم هادىء أو عنيف

لقد كانت المجلة منى فى مقام البنت أو الولد .. وقد فتحت لى صدرها فى الشدة والرخاء ، ومنذ احتجبت عن الصدور لم أفكر - الا مسوقاً بسلطان الحاجة - فى انشاء مقال أو كتاب أو حديث يذاع هنا أو هناك .

وكان مرض أم البنين يفل الحديد وكنت ذلك الحديد ..

لم أستطع وأنا معيد فى كلية الآداب أتقاضى ستة عشر جنيهاً ونصف الجنيه أن أعيش فى فيلا وأتقل فى سيارة خاصة ، وقد

اضطرت يوم مرضت أم البنين الى أن أبيع السيارة وأنتقل الى شقة صغيرة في عطفة من حارات حدائق القبة سماها أصدقائي (مفرش الحمص) حيث كان تجار الحمص يفرشونه في ساحة أمام بيتنا الجديد ليحف قبل تعبئته ، وسميتها أنا (حوش بردق) وحوش بردق يطلق عادة على كل حي تسمع فيه الألفاظ النابية التي يندى لها الجبين ، ولا يتخرج سكانه من ارتكاب الهنات دون اعتبار لقاطن أو غابر طريق ؟!

وكنّا في مطالع الحرب الكبيرة الأخيرة ، وكان البيت الذي فيه شقنا البيت الوحيد الذي يزار بسيارات خاصة ، هي سيارات بعض الصحب من الزائرين ، وكثيرا ما هشنا فتيات الحى عن سيارات الأصدقاء ، فقد كن يوصين المصور الجوال أن ينتظرهن عند أية سيارة تقف ببابنا ويركن جوانبها وتتخذ لهن الصور ، ليرزنها عند اللزوم من باب المفاخرة أو التمويه عند من يردن مفاخرته أو التمويه عليه !! ..

وفي (حوش بردق) حصلت على درجة الدكتوراه ، وفي حوش بردق كنا نتحدث في السياسة ونراجع حياة بلادنا في عمومياتها وتفاصيلها ، ولو علمت الحكومات التي ساست أمورنا بما كنا نتحدث فيه أو ندعو اليه لاعتقلتنا مدة الحرب كلها ، وكم مرة كنت لا أنام حتى أطمئن لعودة أصدقائي الى بيوتهم ، فقد كانوا شعلة من الحماس الدافق العنيف الداعى الى جهاد

الانجليز وفاروق بكل أسلوب يمكن اتباعه ولو كان أسلوبا
أحمر كالدم ، فقد كانت مصر تعيش في ذلة حقا ، تبيح لكل
مواطن واع مستقيم السيرة قوى العقيدة أن يبذل في سبيل
انقاذها كل ما يملك من سلاح ..

كان (حوش بردق) صالونا عظيما يلتقى فيه خيرة شباب
الجيل ، محمود الشاهد ، صلاح ذهني ، أبو بكر نور الدين ،
عبد الفتاح عبد العظيم ، محمد خشبة ، هاني كامل ، نور الدين
طراف ، فريد زعلوك ، توفيق الطويل ، صلاح الشاهد ، محمد
فتحى ، عبد القادر السماحي ، ابراهيم رزقانه ، عبد الفتاح
زكى ، وغيرهم كثير ، وكانت زوجات المتزوجين يصحبهم ،
وكننا نتحدث في حرية كأننا لا نعيش في مصر ، أو كأن مصر
لا تعرف الظلام ، ولا أعنى الظلام الذى فرضته السلطات
الحريرية ، بل أعنى الظلام الذى كانت تعيش فيه نفوس
المصريين ..

وفي هذا الصالون نشأت زوجاتنا نشأة طيبة ، اذ لم يعرف
مجلسنا الشراب ، ولم أر واحدة منهن تدخن سيجارة ، وقد
استكملن ثقافتهن مما كن يسمعه منا أو ينقلنه عنا ، وكننا
نحسن الكلام ونحسن رأى ، وقلما تفلت من أحدنا كلمة تنبو
عن الذوق ، وانما نحن أسرة واحدة كل ما يجرى فيها يشرف
طابعها ويعلى من قدرها

وفي صالون (حوش بردق) تخرج هؤلاء الشبان وتزلوا في
ميادين الحياة التي هيأهم الله لها ، فكان منهم كبار الأطباء وخيار
أساتذة الجامعة ، وأساطين السياسة ، وفحول العلم وأعلام
الأدب ورجال الاقتصاد

هؤلاء هم صحتي .. أصدقاء الشدة والرخاء ، ومنهم من
كان أقرب الى نفسي من نفسي بما آثرني به من حب اقتفدته
عند بعض دمي ولحمي ! ..

وفي (حوش بردق) استردت أم البنين عافيتها ، وعادت الى
روائها وبهائها ، وأفاء الله علينا من خيراته الشيء الكثير ،
فصدرت لي ستة كتب بيعت بمئات الجنيهاً والفضل في ذلك
يعود الى صديقي على حسن صاحب مكتبة الآداب ، فقد أخذ
بيدي ووضع تحت تصرفي كل امكانياته ، فما كنت أفرغ من
طبع كتاب الا وزحم مطبعته بكتاب لي جديد ، وعلى حسن
أكبر من ناشر .. هو أديب ذواقه ، خدم العلم والأدب ، وفي
رحابه صدرت كل كتب توفيق الحكيم وتيمور ، وان عشرين
كتاباً لي تسجل فضل الناشر الأديب والصديق الحبيب

ثم عملت محرراً في دار الهلال وكانت مكافأتي ثلاثين جنيهاً،
ورقيت في الجامعة وأصبحت مدرسا يتقاضى خمسة وعشرين
جنيهاً ، وصدرت المجلة النسائية ومجلة الكتكوت وكنت أتقاضى
عن الاشراف عليهما ثمانين جنيهاً كل شهر ، وأقبلت على دور
الاذاعة هنا وهناك

غمرنى الرزق بغير حساب ..

لقد كافأنى ربى لأنى أحسنت أداء الواجب فى علاج
أم البنين

كان (حوش بردق) مفترق طريق .. كان الاقتراض جزءا
من حياتى فأصبح لى رصيد فى البنوك ..
من لى بحوش بردق وأيامه الحلوة ؟

لقد عشتها رضى البال مستريح النفس فى ابتسامة عريضة ،
كأن الحياة سعادة مطلقة لا نعرف فيها الحزن والأسى أو الغش
والخداع ..

وانتهت الحرب الكبيرة ، وبدأت مصر تدخل فى حرب أكبر
وأعنف مع فاروق ، والانجليز

ان الذين عاشوا أيام فاروق وأحسوا سلطان الانجليز ، هم
وحدهم الذين يشعرون اليوم بالعزة من أعماقهم ، حيث
لا فاروق ولا انجليز .

كانت مقدرات مصر شيئا هينا يعبث به الملك فى سهولة
ويسر ، وما كان يمكن لمواطن أن يعقب برأى على ما اتخذ
فاروق من قرارات ، ومن أخطر القرارات التى أصدرها ذلك
الملك ، حرب فلسطين دون استعداد أو تهيئة للنصر الأكيد .

ليست الحروب سلاحا فقط ، بل الحروب حالة نفسية قبل
كل شئ ، وفى القرن الأخير انتصرت ألمانيا مرات وانهزمت

فرنسا مرات ، ذلك لأن الالمان كانوا مهينين نفسياً للحرب ولم يكن الفرنسيون على هذا المستوى العالى من روح الكفاح
كان يجب أن يعرف شعبنا معنى الصهيونية وخطرها .. كان يجب أن تؤمن سائر الجبهات ، وخاصة سائر الأشقة فى عمان وبغداد ، قبل أن نمتشق الحسام ويستدعى الداعى البذل والفداء ولن أنسى ما حيت موجة الأسى التى علت وجوه المصريين يوم أعلنت الهدنة بين العرب واسرائيل وانتشرت رايات الخزى والعار ..

أقسم ما رأيت صحبى حزانى لأمر حزنهم لهزيمة أربعين مليوناً من العرب أمام طغمة من ثقافات الأمم لا يتجاوز عددها مليوناً من الحرافيش !

ما كان يمكن للعرب أن يكسبوا جولتهم وهم فى نظم الحكم طرائق ، وفى علاقاتهم زيغ ، وفى أديانهم شيع وفى نظرتهم لجد الأمور بدائيون

لقد كانت حماستهم للوغى والنزال خطبا وأشعارا .. تماماً كما كان العرب فى مطلع حياتهم وبكورة حضارتهم ، مع فارق كبير .. كان أولئك القدامى يشعرون وينشرون وبنودهم خفاقة وأعلامهم فى السماء ! ..

وكيف كان عدونا المسيح الضئيل فى سنة ١٩٤٨ وحدة متماسكة عبر الاراضى والجبال وحول كل بحر ومحيط ...

ونظامهم السياسى ؟ أسوة وقوة ..

وجنديهم ؟ خير ومتمرس ..

وحربهم ؟ فكرة وعقيدة ..

كل هذه الحقائق زورتها الصحف والاذاعات العربية ، زعمت أن الصهاينة عصابات متنافرة ، عبيد يساقون للحرب ، وجنودهم سكارى حيارى ، وقادتهم قطاع طريق ؟! ..

كان المصريون يتشبهون بأرض المعركة ويعضون عليها بالنواجذ ، وكان أحلاف لهم يخلون الطريق للعدو ويدعون للسلام ؟ ..

السلام ؟! ومع من السلام ؟ مع صهاينة لا يرعون ذمة ولا يرضون الا حدودا لا تحدّها قيود

لقد كانت طغمة الشواذ التى نزلت من أوروبا الى أمريكا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تعقد فى كل يوم سلاما مع حمر الهنود ، وكانت الطغمة آلافا حين وطئت أقدامها أرض القارة الجديدة ، وكان حمر الهنود ملايين ، وبعد قرنين أصبحت الطغمة ملايين وأضحى الهنود الحمر بضعة آلاف

ان صهاينة فلسطين تلاميذ مجتهدون للرعىل الاول الذى حط فى أمريكا وقضى على أصلاء المواطنين ! ..

ألم تر كيف اشتروا أرض فلسطين من أصحاب فلسطين ؟ ثم استردوا أموالهم بفنج العذارى وعرض الغوانى ،

الراقصات ، سيان في الوحل أو المعابد ، «النافخات في ضمير
الشيطان أو في مزامير داود ، الكاشفات كل محجوب ، الباذلات
كل مرغوب ، البائعات الهوى للمحرومين من أصحاب الأرض
في فلسطين؟! ..

كان ضعف آدم أول اسفين دقه اليهود في سبيل «إسرائيل» ..
وشعوب العرب؟

لم تهزم شعوب العرب في حرب فلسطين بل كانت الهزيمة من
نصيب الحاكمين

حاربت «الحكومات العربية» إسرائيل يوم ولدت إسرائيل ،
وليس لها قاعدة شعبية في أي أرض خرجت منها جنودها وبندوها
اللقضاء على المولود الجديد! ..

كانت في مصر حكومة تستند الى تأييد شعبي صغير ..
كانت في العراق حكومة ضائعة بين أحزاب من كل لون
ودين وأعراب تائهين في الصحراء عن شمال ويمين ..

وكانت في الأردن حكومة هي بالاسم من العرب ، وفي حقيقتها
صدى لأجنبي يعنيه أن تقوم دولة إسرائيل .. انهم الانجليز ..
عز عليهم في «الحجرة» مكان الصدر فتحسسوا أي جانب فيها
.. على كرسي وثير أو على حشف الأرض .. الهدف أن يبقوا
في «الحجرة» ولو عند الباب .. وهكذا ضاقت بهم رحاب الشرق
العربي الا في الاردن حيث أقاموا حكومة صدى لهم في كل
احساس وتعبير

ثم كانت في سورية حكومة حجبت شعبيتها ألوان من الغفلة
وسوء التدبير ..

أما في ربي لبنان فكان شعب ذكي مهالِم سار في الزفة وهو
معنى بحراسة هوائه النقي وجباله الشوامخ وفاكهته الطرية
ونشاطه الدولي منقطع النظر ..

وهناك في أقصى الجنوب كان النفط سيد الموقف ، ومن أجله
سيست الأمور على نحو فريد !

أين كانت القاعدة الشعبية في ذلك الحين ؟

كانت شعوب العرب جميعاً في سجن كبير .. كان الحكم
العرفي يسود البيد والحضر ، والأحرار بين شريد ومعتقل ، ومن
عجب أن يطول عهد الطغيان في الوطن العربي فلا تخف له وطأة
منذ عهد معاوية حتى قيام إسرائيل ؟ !

ما لنا وهذه الذكريات المؤذية ؟ • ان حاضرتنا يحفزنا الى كل
جميل وجليل ، فلا ينبغي أن نشغل أنفسنا بالماضي حتى لا نضيع
المستقبل ..

لكل مجتمع صور وتقاليد وطرائق في النظر للأشياء والأحياء ،
ولا بد من تطور المجتمع حتى تتطور الحياة ، ولا ينبغي أن
يقف الناس عند الموروث حتى لا يحرم الخلف من ارث جديد
التجديد طبيعة كل شعب متحضر ، ويجب أن يحدث تجديد
في كل مجتمع ، وحتى في الدين يجب أن تتطور طقوسه على مر
السنين ! ..

لقد كان الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين وغيرهم من علامات الساعة على تطور الذوق والفهم والتمييز ، ولو لم يكن هؤلاء فى حياتنا لبقينا أهل نواص وأعتاب ، ولمضينا نؤمن بما أدخل على الدين من خرافات ، ولا زلنا تتعلق بمقابر الصالحين والأولياء ، نبكى عندها ونضرع لها ، ونتنظر فى رحابها المثوبة والرجاء ؟ ! ..

لقد ضاق صاحب لنا بالطربوش فى سنة ١٩٣٣ فهدده الأستاذ العميد بالفصل من الكلية ان خلع الطربوش ! ثم مضت السنون فأراني لا أجد على رأس طربوشا ، اذ خلعه الملايين من التلاميذ والعمال والموظفين ..

لقد كان الطربوش شيئا سخيفا وقديما وغير عملى ..

كان لا بد أن يخلع الطربوش واحد حتى يكون هناك انتقال وتغيير وان كانت قضية الطربوش من أصغر القضايا فى ملامح تطور جديد ..

لم أقم قط وزنا لكلام الناس ..

ان سلوكى فى الحياة وأسلوبى فى تناول هذه الحياة من حقى أنا ، وأنا وحدى الذى ألون الاطار الذى أعيش فيه ، ما دامت أدوات التلوين لا تؤذى أحدا من الناس

المجتمع صور وتقاليد ، وليس صورة واحدة أو تقليدا واحدا ، ونحن الذين نصنع هذا المجتمع ، وكل منا له طابعه

ومزاجه ، واذا لم تتباين في الطبع والمزاج كان مجتمعا بليدا
لا ذوق فيه ولا احساس ..

الناس في حياتهم طرائق ، والمجتمع يختلف من شعب لشعب
ومن مدينة لمدينة ومن حي لحي ..

تحية النساء والرجال في باريس قبل وأحضان ، وكل يمارسها
على هواه ، وفي غير تخرج أو حياء ، وتحية الشرطة من عيون
الناس ، وتبارك القوانين هذه التحية مهما يكن فيها من صنوف
الأنس والانتناس ! ..

هذه التحية في مدينة القاهرة فعل فاضح يقع تحت طائلة
القانون ..

وهذه التحية في قرانا عار لا تغسله الا الدماء ! ..

ثم ماذا ؟

اذا سرت في حارات الحسين أو السيدة زينب والى جوارك
محرم زفك الكبار والصغار وألقوا عليك من العبارات ما يؤذى
سمعك ويدفع الدم الى وجهك .. واذا انتقلت بها الى جاردن
سيتى أو الزمالك فلن يتعقبك انسان بقول ذميم أو قول كريم

الناس في تذوق الحياة ألوان وفي تقاليدهم معادن ، والدنيا
تسير ولن يقفها كلام الناس ، ولن يحول بينها وبين جديد نراه ،
سخف الطقوس وغباء المراسيم

لقد مارست حقى في أن أعيش على النحو الذى أراه ،

وسيان عندي زفنى الناس بكلمة شر أو قالوها طيبة أو حبسوها
عن الخير والسوء ..

تدبت مديرا للمطبوعات ورقيا للنشر عقب حريق القاهرة
فى ٢٦ يناير ١٩٥٢

كنت أستاذًا مساعدًا للصحافة فى الجامعة ، وهذه وظيفة
علمية تحتاج إلى تطبيق عملى ، وإدارة المطبوعات تراقب
المسرحيات وأفلام السينما والاسطوانات وما إلى ذلك
من الفنون الرفيعة ذات الأثر البالغ فى حياة شعبنا وسائر شعوب
الوطن العربى التى تسمع أغانيها وتشاهد أفلامنا

ورقابة النشر تعنى مراجعة ما ينشر فى الصحف والكتب
والمجلات قبل طبعه وهو عمل غريب على معلم للصحافة ، غير
أنه مران طيب على اللوامة بين المحظور والمنشور

وبروح الأستاذ الجامعى وضعت قواعد لمعالجة الصلة بين
إدارة المطبوعات والصحف من ناحية ، وبينها وبين أصحاب
الفنون التى ذكرتها من ناحية أخرى ، ورأيت ألا أستقل بالرأى
أو اتفرد بقرار .

دعوت نحو مائة فنان وفنانة من رجال المسرح والسينما
لتناول الشاى فى بيتى ، لأناقش معهم القواعد التى سيصدر بها
قرار وزارى ، وحضر الاجتماع أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب
وجورج أبيض ويوسف وهبى وفريد الأطرش وكبار الممثلين

والممثلات وكبار المخرجين في المسرح والسينما ، وتناقشنا في اللائحة التي صدر بها قرار وزاري بعد أيام جاء طبقا لرغبات هذه الصفوة المرتجاة ، وسجلت الصحف والمجلات صورا للحفلة وما اتخذ فيها من قرار

ماذا قال المجتمع ؟

سخط بعض المسئولين في الجامعة لأن أستاذنا سمح لنفسه أن يختلط بالممثلين والممثلات ، وأن يظهر في الصور معهم وأن يجلس بينهم ، وانها لهنة ما يجوز أن تفوت دون سؤال هذا الأستاذ عما ارتكب في حق الجامعة وتقاليدها من اثم خطير وشر مستطير ؟ ! ..

أى والله .. حدث هذا في سنة ١٩٥٢. وسجل في أوراق رسمية لاتزال تحيا في الأضابير

ليس هنا محل للدفاع عما ارتكبت من اثم وشر ! فالفن وأصحابه ظاهرة اجتماعية أعز من أن يجرحها غبى وأكبر من أن يمسها جهول ، والفن في ذمة الجامعات ذات الأصالة شيء جدير بأن تكون له كراس ، وخلق بأن يكون له أساتذة ومعلمون ، وهو قديم في الحضارة قدم الاولين من يونان وفراعين ، وان الحضارة منذ آلاف السنين تدين لفنون التمثيل وما دار في فلكها من فنون

ألم أذكر أن المجتمع صور وتقاليد وأن الخضوع لسلطانها

بلا وعى أو تفكير تحقيق للنفس أى تحقيق ؟

وجدت فى ادارة المطبوعات عشرات من الافلام المعطلة بحجة
أو أخرى ، فراقبتها بنفسى ، وأجرت عرضها على مسئوليتى ،
وكان هناك فيلمان ، أحدهما مصرى والآخر ايطالى ، وكان
عرضهما فى دور السينما مشكلة سياسية خطيرة فى تلك الايام ،
وحذرني الموظفون من خطورة الموافقة عليهما ..

وكان الفيلم الأول فى عهد خليفة من خلفاء بغداد ثار عليه
الناس وحرقوا العاصمة ، وكنا لا نزال نعيش فى دخان حرائق
القاهرة ..

وكان الفيلم الثانى يثل فقر الشعب الايطالى واهمال حكوماته
فى رفع مستواه ، وهنا قياس يعيش على مستواه شعبنا ، وعرض
مثل هذا الفيلم دعوة صريحة للتبرم والضيق ، أو دفعة الى
تفتيق الأذهان لتغضب وتشور

وتفضت نفسى من صدرى وناقشتها ، ماذا يضيرنى لو وافقت
على عرض الفيلمين ؟ وماذا ألقى من عقاب اذا تم التنفيذ وترتبت
عليه المتاعب ؟ قد يلغى ندبى وأعود الى الجامعة .. قد يحال
بينى وبين ترقيتى الى كرسى الأستاذية .. وحدثتنى نفسى أنى
لن أشنق على أى حال !

وأعدت نفسى الى صدرى ، وطلبت أنور وجدى صاحب
الفيلم الأول ، وكان الرجل قد فزع الى من قبل معلنا خراب

بيته ان لم يعرض فيلمه ، فقد غامر فيه بكل ماله وصحته بعد أن وافقت المطبوعات على الموضوع والسيناريو ، وترك عنقه - على حد تعبيره - بين يدي مدير المطبوعات ، واتفقنا على عرضه في دور السينما في القاهرة والأقاليم في وقت واحد ، وخلال فترة العيد ، حتى اذا تنبه رجال الملك وعيونه الى ما يعنيه الفيلم ورأوا مصادرته استحالة عليهم الامر الى أن تنتهى اجازة العيد

وعرض الفيلم في عدة دور سينمائية في القاهرة ومعظم دور السينما في الأقاليم فترة العيد وهى فترة مجزية ، يشاهد فيها الناس الافلام بسخاء ، فلما عدت الى على بعد اجازة العيد صادرت الفيلم في القاهرة وتلكأت في مصادرته أباما حتى استنفذ غرضه في الأقاليم ..

أما الفيلم الثانى ، فقد أجزت عرضه ثم ألغى ندبى ، وقدر له الظهور والعرض على الجمهور ، وكتب احسان عبدالقدوس في ١٤ يوليو ١٩٥٢ في روزاليوسف يثنى على الفيلم ويذكر بالخير من وافق على عرضه ..

والفيلم الوحيد الذى لم أوافق عليه كان يعالج بعض المشاكل الدينية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت وغضب لذلك صاحبه ، ومضى يهاجم عقليتى الضيقة وتفكيرى المحدود .

وبعد الغاء ندبى حاول صاحب الفيلم الافراج عنه ، ودعا

في عرض خاص كبيراً مسئولاً وكانوا قد أفهموه أن عقلية رجعية هي التي حالت بين هذا الفيلم وبين ظهوره على الشاشة ، فلما بدأ العرض وقفه الكبير المسئول بعد دقائق وذكرني بالخير وبارك ما صنعت ، وأنب مدير المطبوعات تأنيبا شديدا ، وقيل ان صاحب الفيلم أسقط في يده ومرض شهورا

ثم أقمت حفلات أخرى للصحفيين المصريين ، وللأجانب من الصحفيين ورجال الاذاعة والتلفزيون ، وللملحقين الصحفيين ، وفي هذه الاجتماعات حلت عقد وسويت مشاكل ومضت الأمور على ما يرام

ثم هربت من رقابة النشر لتصرفات مسئول في حكومة ذلك العهد ، فقد طلب مني أن أغلق صحيفة صباحية اغلاقاً وأسدها سداً لأن الملك فاروقاً ثائر فائر ومصر على هذا الاجراء ، ثم مضت ساعة وقبل المسئول أن تغلق الصحيفة شهرا ، حتى اذا جاء المساء رضى أن يكون الاغلاق يوما

وفي الثالثة صباحا اتصل بي المسئول الكبير وطلب مني الغاء الالغاء والاتصال بأصحاب الصحيفة ليصدروها في موعدها ، أي بعد ساعتين من حديث التليفون !!

واحتجبت الصحيفة يوما لان اصدارها في ساعتين ضرب من المستحيل ..

وغضب الرجل لأن الصحيفة التي كان يريد في الصباح سحب

رخصتها والغائها إلغاء غابت يوما عن الصدور !

وبعد أيام دعاني هذا المسئول الكبير الى مقابلته ، فوجدته متجهما وفي يده صحيفة أسبوعية له فيها صورة وتعليق

انها كاريكاتير يبرز ملامح الرجل ، فاذا هو وردة وطربوش !
” ودافعت عن الصورة والتعليق وقلت انها ملحة لا تسيء الى
أى مقام رفيع ، فما رأيته الا واقفا ينهى اللقاء بتحية باردة فيها
السخط واضح ملموس ! “

لم أكن أعرف كيف يقابل الوزراء وكبار المسئولين ، ويبدو
أن لذلك قواعد وأصولا ، ويبدو أنني تجاوزت حدى فى تناول
المسألة مع الكبير المسئول وأهملت القواعد والأصول ! بيد أن
الذى ساءنى ، حديث الرجل وكأته القدر لا يغلب ولا يهون ،
فاذا هو بعد أيام فى بيته ، وغيره على كرسیه ، وعلى غرار
يدير الشئون !

على قصر الحاكم العام فى الكويت حكمة تقول : « لو دامت
لغيرك ما وصلت اليك » ؟ !!

وما أكثر ماتحمل هذه الحكمة من معان تفوت الكثيرين ..

كانت الشهور الخمسة التى أمضيتها مديرا للمطبوعات شهورا
عصيبة قاتلة للصحة والعافية ، فقد كنت أحاضر فى الجامعة ،
فوق مسئوليتى كرئيس لمعهد الصحافة ، وكنت أبقى فى مكتبى
من أجل الصحف الى الفجر فترة من الزمان ، وكنت حين أريد

عرض أمر على الوزير أذهب اليه في يوم الأحد وأقابله فجر
الاثنين . وكنت أراجع لى كتابا عن الصحافة الأوربية وأراقب
طبعه ، ومع ذلك زاد وزنى وبدأت صحتى على أحسن ما تكون . . .

لقد رأيت فى المطبوعات والنشر سلطان الحكومة فى أوجه
جعلوا لى فى أول الأمر سيارة خاصة يقودها جندى مسلح
ويجلس الى جانبه جندى مسلح . .

وكان أحد الجنديين يصحبنى فى مصعد الادارة بمسدسه
عامر الطلقات ، ولم يكن أحد يخاف هذا الجندى مثلما كنت
أخافه أنا . . ماذا لو انطلقت رصاصة خطأ من جراب مسدسه
واستقرت الى وسطى فى زحمة المرور أو زحمة الصعود ؟؟؟

ووقفوا الى باب العمارة التى أسكنها جنديا مسلحا يحيينى
ذاهبا أو آيبا بدقة من حذائه ودقة على سلاحه ، وأعجب منظر
الجندى صبية العمارة وفى مقدمتهم ولدى الصغير ، وقد عدت
يوما واذا بخمسة عشر طفلا من سكانها يحملون على أكتافهم
عصيا ويقفون خلف الجندى ويستقبلوننى على طريقته بدقات
من الأحذية ودقات على الصدور . . .

وذهبت الى وكيل الوزارة أرجوه أن يعفينى من كل هذه
الشعائر فأبى وذكر لى ان مقتضى الحال يفرض على هذا
الحصار . .

وقد تخلصت بنفسى من هذا الحرج فأمرت الجندى المسلح

بباب العمارة أن يختفى في شقتي لا يظهر ولا يبين ، وبذلك
تخلصت من استعراض الصبية الصغار الذين كان يقودهم ابني
في غرور ما بعده غرور .

أما السيارة وجندياها للمسلحان ، فقد مضت تروح وتجيء
ولم تنفع في صرفها تعلقة أو اعتذار ، فقد كان أمرا للجنديين أن
يصحباني في الليل وفي النهار ، وأن يكونا حيث أكون ..

انه شيء يثير في النفس الزهو والكبرياء حين يحاط المرء بكل
هذه الأعراض ، أعراض السلطان والتفخيم ، ولو علم المرء أنها
مظاهر زائلة لخفضت حدة الزهو والكبرياء ..

وقد علمت أنها من العرض .. فما شعرت بضيق حين فرغت
من تلك الوظيفة ، بل لا أغالي ان زعمت صادقا أنني سعدت يوم
أتيحت لي فرصة العودة الى الزملاء والتلاميذ

فى شهر يونية ١٩٥٢ ألقى ندبى فى ادارة المطبوعات وعدت الى الجامعة والعمل فى المجلة النسائية ، وكنت من قبل مشرفا على تحريرها ، وكنت بحكم ذلك أراجع كل رسالة ، وأحول دون نشر كثير مما كانت تتلقاه المجلة من رسائل تكشف عن حياتنا الاجتماعية والخلقية ، وتبسط مافىها من أعاجيب ..

وحبست عن النشر رسالة طويلة كأنها كتاب قصير ، ذلك أنها رسالة تلميذة فى الجامعة خفق قلبها بحب أستاذها ، وتريد من المجلة أن تبصرها بالرأى المفيد وتمدها بالتوجيه الصحيح! وحال دون نشر الرسالة عاملان ، الأول مادى وهو طول الرسالة ، والثانى خاص بما انطوت عليه من أسرار الحياة فى الجامعة ، وما كنت أريد أن أكشف المستور ، والجامعيون فى ذلك الوقت يؤذيهم ناعم القول ويجرح بشرتهم النسيم

وبقيت الرسالة عندى عشرة أعوام حتى رأيت أن يكون لى فى الناس كتاب ، وقد وضعت صاحبة الرسالة أساتذتها وزملاءها وزميلاتها فى أماكنهم بين معادن الناس ..

ذكرت صاحبة الرسالة أنه لم يكن يشغل بالها أحد ، فقد كانت قادرة على واجباتها فى البيت والكلية ، ولم يكن لها بعد زوج أو صديق ، وكانت حين تريد الترفيه عن نفسها تذهب الى بيت أستاذها وتلاعب أطفاله وتسمر مع زوجته ، ثم تنظر اليه

وتحبس خفقات قلبها حتى لا يسببها أحد . وكان هو يتحفظ معها حتى ولو خلا الصالون من زوجته وأولاده . . .

« تمنيت لو أنى زوجته أجلس اليه ليملى على كتبه ومقالاته كما أجلس عادة في قاعة المحاضرات وأسجل كل شيء يقوله حتى نكاته !

« لقد كنت أتمنى أن أقف الى جواره في الميادين الكثيرة التي يملأ فراغها وأقاسمه هذا النشاط الذي لو وزع على خمسة أساتذة لكان جديرا بإبرازهم في ميادين العلم والمجتمع »
« لقد كانت زياراتي لبيت أستاذي متعة مابعدھا متعة ، وحين خطبت أحب خطيبي أستاذي وكان يعجب به ويرتاح اليه ، وكان هذا عاملا جديدا شجعني على هذا الحب الكبير ، وليته ما أحبه ! فان حب خطيبي له كشف عن أشياء في أستاذي افتقدتها في كثير من الرجال . . .

« كانت أياما حلوة انتصرت فيها على نفسي انتصارا أثر انتصار وشعرت بحلاوة النصر ، فقد كنت معرضة في السنة الاولى من حياتي الجامعية لملاحقة بعض الاساتذة والطلبة ، وفيهم من يغري بالمودعة ، وفيهم من يغري بأكثر من المودعة ! وكان أستاذي هو وحده الذي حماني من كل سوء ، فقد كان عطفه على وبره بي ونصحته لي يملأ قلبي طمأنينة وأنا حيرى في هذا التيه العجيب

« كان حديثه معي لا يخلو من مجاملة عابرة أو ملاحظة تسر

خاطري حتى ظننت أحيانا أنه يحبني وأن واجبه يستر هذا
الحب الأصيل ...

« وكانت ندوة أستاذي ندوة علم ورأى لا يختلف اليها الا
خيرة الشباب ، وكان هو أيضا شابا لا يبدو عليه عمره وان عربد
الشيب في رأسه حتى ليحтар الناس في سنه ، فهو معظم الوقت
أصغر من سنه ، وكان يكبر - في نظري - اذا هم
أو شغل بالله شاغل ، وكان يراوغ كلما سئل عن عمره فيقول :
ان العمر في قلوبنا ... وعلى قدر ماتعمر به من خير ، وماتنبض
به من حب تقاس أعمارنا !

ان الانسان الذي خلا قلبه من الخير والحب لا عمر له ...
انه يموت يوم يولد ؟ ! ..

وعلى أى حال فما كانت تعينى سنه ، فانه قائم في نفسى ولو
بلغ التسعين ! ولو كنت زوجه لفهمت قدره وبسطت له من نفسى
كل ما في نفسى من أنس وبهجة وولاء ، ولوقفت الى جواره أتغنى
نصره وأقاسمه بعض ما لقيه من المآسى والآلام »

وتدافع صاحبة الرسالة عن عواطفها بأن هذا الحب لم يتجاوز
حدوده المشروعة ، وتنسأل : أليس الحب حقا للانسان في كل
عقيدة وكتاب ؟ ثم تقول « وهل يضير أحدا أن أكون صديقة
أستاذي ؟ لقد كان في الجامعة أول تاريخها صديقات لساتذتهن ،
وقفن الى جوارهم في السراء والضراء ... ان واحدة منهن كانت

تقتسم مع أستاذها راتبها حين عصفت به الاقدار مع أنها زوج
وأم أطفال !

« كنت أريده لى وحدى ، وكنت أعجب لامره ، كيف لم
يلفته جمالى أو تشغله مفاتنى مع أتنى أتحت له من الوقت
والفرص أكثر مما أتحت لغيره من الأساتذة ليتبين محاسن قدى
وطبعى ، وكشفت له كثيرا مما تحول قاعات الدرس عن
كشفه ؟ !

« لعلنى لم أحبه لانه أستاذ كفاء وأديب ، ولعل هناك أسبابا
أخرى حببتنى فيه ، ليس منها على أى حال شيء مادى يغرى
عادة النساء ، فأستاذى رجل مرتب الهندام وان كان يبدو فى
أضييق حدود الاناقة ، وجهه مقبول وجذاب ساعة المرح ، غير
أنه بغض ساعة الغضب ، انه دون المتوسط فى أكثر الرجال
الذين عرفتهم ، ولا شك أن فيه شيئا أو أشياء تجاوبت مع
نفسى ... انه عنيد ، لا يخاف ولا يتردد ولا يتملق ، ساخر ،
واثق من نفسه ، معتد بتاريخه ، متفائل أبدا ، قادر على العمل
والجهاد فى أى مكان ، متلاف لا يبقى على شيء اذا فرغ من
ديونه ، وأنا أيضا عنيدة متلافة ، لا أخاف وان فاتنى سائر
ماله من صفات

« له قلب كبير ، صلد أمام الحادثات ، ناعم لآحزان الناس
ومآسيهم ، دفاع للنصر والمجد ، خفاق اذا أحب ، لا يبصر اذا
كره ، وفى هذا القلب غمس أستاذى قلبه مرات ومرات ، فكان
ماصدر عنه نورا أحيانا ونارا فى بعض الأحيان ... ولاستاذى

نسان اذا أطلقه فى خصم دهاه ، وليس يعنى هذا أن أستاذى
شرير ، فان الكلمة بالحلوة تمسح من قلبه الطيب كل سوءات
الاعداء والخصوم

« لقد كان أصدقاءه يسخرون من هذا القلب الصافى ،
ويأخذون عليه اللين ، حين يلين له الخصوم .. فيقول : ما ينبغى
أن نضعف والحق الى جانبنا ، وليس من شرف النفس أن تقوى
حين يترضاها من أساء الينا

« وأستاذى على النقيض من زملائه ، يضحك ويسمر وينكت
مع تلاميذه ، ولا يلزم هذا التحفظ المصطنع الذى نعرفه عن
الكثيرين من أساتذة الجامعة الذين ينقصهم العلم والاخلاق
والفضائل الأولى التى لا تفتقد حتى فى عامة الناس ! ...»

« وكل وظيفة شغلها أستاذى كان فيها محسودا ، وكل عمل
قام به نشط له الخصوم فى كل مكان ، واذا خيل الينا أن حساده
هزموه ، رأينا يطب للواقعة فاذا هزيمته أدنى الى النصر ، واذا
هو لا يزال فى الصدر ، واذا خصومه سحال تسف التراب
الذى يدب عليه !

« وفى أستاذى كبرياء نادرة ، فكم ضيع من فرص حتى
لا يخفض أتفه أو يجبس عنه الهواء الذى يرضاه ؟ وكم أعجبنى
حين قال ساعة ضيق : ان الرجل اذا تساهل فى سمت أتفه مرة
عاش بقية عمره بلا أتفه ! !

« ربما حببني فيه كل هذا أو بعض هذا ، وبالرغم من أن ظروفى تغيرت ورأيت من الرجال أشكالا وألوانا ، ولبعضهم فى قلبى مكان معلوم ، فان أستاذى لا يزال يحتل مكانته الأولى فى هذا القلب منذ عرفته صديقتى وكان لها فيه نصيب »

ثم تجيء فى الرسالة بياقات أخرى فارغة لا تستحق النشر ، ولا تعيننا على تصوير الحياة الجامعية على النحو الذى تضمنته الرسالة فى فقرات أخرى من وقائع ومفارقات ، غير أنها تعود فتقول :

« ذهبت الى الكلية لأول مرة بصحبة أستاذى وفى قلبى ذخيرة من الامانى والاحلام ، وفى نفسى رهبة ورغبة ، وفى عقيدتى ايمان بالجامعة ليس له حدود

« حببني زوج صديقتى فى (قبة الخالدين) واستعدادخاطرى وأنا فى صحبته كل ماكنت أسمعه منه عن أصالة الجامعات فى دنيا الأمم والشعوب ، وخيل الى أن كل جديد مرجعه اليها ، وأنها الاتون الذى تصهر فيه جميع المذاهب والافكار ، وتصبغ فيه العقليات جيلا بعد جيل ، وأن الجامعة ، والجامعة وحدها ، هى التى زلزلت دعائم كل قديم ، وأرست قواعد المجد لبلادنا فى كل علم وفن ، وان الرأى الحر هناك ، ومن هناك انسابت حرية الرأى الى ضمائر الناس وتغلغلت فى نفوس الافراد والجماعات

وتطلعت الى أستاذى وهو يقود سيارته ، و سرنى أنى بصحبة
واحد من الذين يشكلون المذاهب والآراء ، وهزنى الطرب
بأنى سأسعد تحت القبة بعلماء يصنعون التاريخ ، آخذ عنهم
وأستمع اليهم سنوات وسنوات !

« وبدأت قبة الخالدين من بعيد وحولها السور ... »

« وسألته عن القبة والسور ؟ »

« وأجاب أستاذى ، وابتسامته الساخرة تملأ شفتيه .. ان أقبح

ما يطالغنى هذا السور ... »

« فقلت أتملقه وأرضيه ... انه سور الخالدين ! »

« قال وكأنه يحاضرني : ان الخلود لا يجوز أن يحاط بسور .. »

ان الجامعات الحرة لا تحيا فى قلب سور ... انهم يسخرون منا

حين يعزلوننا عن الناس ويدعون أن السور سما بالجامعة وجعل

لها قداسة وحرمة ! ... »

« اعلمى يا صغيرتى أنه لا حرمة لجامعة فى شعب لا قداسة له

ولا حرمة ... ان الجامعة بسورها الغليظ سجن نظيف ! انه

كسور الصين ، ولئن تنطلق الصين حتى يهدم سورها ولا يعود

له فى تاريخها تاريخ ! ... »

« وبهذه الروح الشائرة رأيت الجامعة فى أول يوم ، فأمنت

بأنهم لا يتخرجون ولا يخافون ... »

« حتى جامعتهم لا تعجبهم وهى قبلة الدنيا اذا تحدث العرب

أو تطلع المسلمون ... »

« وكنت أستعجل اللحظات - بالرغم من حديث أستاذي -
لأدخل السور وأسلك نفسي بين الالوف التي هرعت الى أحضانها
وفي ضميرها ما في ضميري من ايمان بقبة الخالدين

« ودخلت بناء ضخما في صحبة أستاذي ، واختلفت معه الى
حجرة هي مرجع الصغير والكبير ، وقدمني للعميد ، وكان رجلا
دقيقا أنيقا حازم النظرات حاسم اللفظات ، وتبينت من لقاء
أستاذي بالعميد أنهما صديقان وفي كل من الآخر هوى وريح ،
وارتاح صدري أن أرى أول ما أرى صنوا لزوج صديقتي ، وإن
كان العزم في العميد عارما ، والبت في مختلف الشؤون بين يديه
لا يحتاج الى مراجعة أو تأجيل ، وكان - فيما علمت بعد -
أكثر أساتذة الكلية علما وأبعدهم صيتا وأقدرهم على حل العقد
وتسوية الامور

« لعله الثاني في كليتي الذي أصغت اليه نفسي وإن لم يذهب
اليه قلبي كما ذهب الى أستاذي الحبيب !

« ولا أزعم أني كنت قادرة على الدرس قدرة زميلاتي ، فقد
كن يذهبن الى الجامعة متحررات من المسؤوليات التي ناء بها
كاهلي ، انهن صغيرات يتفتحن للحياة. ويطرقن أبوابها في ثقة
واطمئنان ، أما أنا فقد كنت فتاة تخلفت في البيت سنوات وانقطعت
صلتها بالعلم ، وعولجت أنوثتها على نحو يغري بها عقلاء الرجال ،
فتمكنت من شؤون البيت ، واستقام مراني على التجميل في رسم

وجهي وضبط قدي ، وزادوني فهما بأدب المجتمع ، فما أثر عني
لفظ ناب أو مبتذل ، ولا خلت جعبتى من العبارات الدقيقة الرقيقة
كلما لقينى قريب أو غريب

« لقد اقتنعت أُمى آخر الامر برأى أستاذى زوج صديقتى ،
وفتحت لى أبواب الجهاد من جديد لأفال من دراستى الجامعية
ما أصبو اليه من علم ، ومن حرية أيضا ، وما أضنانى شيء قبل
التحاقى بالجامعة مثلما أضنتنى القيود الثقيلة التى فرضها
على البيت الكريه . »

ورسمت صاحبة الرسالة صورة ممتعة لمحاضرات يومها الاول
فى الجامعة بعد السنوات الأربع التى قضتها فى البيت وراحت
من عمرها هباء ، فحفظ لها جسمها الصغير وخطوها الرشيق ،
وملامحها الفاتنة ، ونظرتها الصاحبة النائمة ، حفظ لها كل هذا
طابع الاخريات من الزميلات ، وأشاع فيها دلال الصغيرات ،
وملأها ثقة ما بعدها ثقة

ثم تقول :

« دخلت قاعة المحاضرات أول مرة ، فأحسست خوفا وغبطة ،
وسرحت ببصرى فى زميلاتى ، وفى الارض والسقف ، وألقيت
نظرة على مقاعد الدرس ، وراقنى هذا الأئس الذى غلب على
الفتية والفتيات ، فطابت نفسى الى ما حولى ، واستقبلت مطلع
يومى بأحلى ما تستقبل به أنثى يومها

« ثم أشرق الاستاذ في قاعة المحاضرات فخيّل الى أنه ملاك أو نصف اله ! وأنصت اليه بكل نفسي ، بيد أنني فجعت في المحاضرة والمحاضر ، اذ كان يلقي علمه مترجماً منقولاً عاطلاً عن اللباجة والابتكار من كراسته وضعها أمامه ، ولم يرفع عنها عينه ، وكان صوته رتيباً ثقيلاً يوقر السمع كصوت الشيخ عبد الصمد مدرس الدين في مدرستي الابتدائية ، وكان الاستاذدون الشيخ عبد الصمد في النطق الصحيح اذ كبا في المنحور مرات ومرات ، ووجرت في لسانه لكنة ليس مرجعها السنوات التي قضاها تلميذاً في جامعات أوروبا ابان الحرب الاخيرة ، بل أصلها العجز في اللقاء ان تاهت عينه في سطر من كراسته

« وكان شعر الاستاذ أشعث أغبر سرح فيه الشيب ، ولو أحسن في درسه لبدت فوضى شعره من مخايل العلماء ! . .

« وكان الأستاذ كثير الاشارات يستعين بها حتى لا تنام . . . ولم أر عينه فقد أخفاهما وراء نظارة سميكة داكنة ، وهو قصير قميء لا يوحى بثقة ولا يغرى بوصال . . .

« لقد فزعت الى بيت أستاذي بعد المحاضرة وتناولت غدائي معهم ، ونصحتني صديقتي ألا أعقب أمامه بكلمة سوء عن زميله المحاضر ، فهو صديقه وصفيه ، ثم قالت : ان ايثاره لهذا الاستاذ بلاهة وغفلة ، فهو يحسده حتى على الشر الذي يحيق به ويغار منه غيره تأكل قلبه وتحرق كل خير فيه .

« وما عرفت حصافة صديقتي وعمق نظرتها للأشياء إلا حين تأزمت أمور أستاذي في الجامعة ، وهم الأستاذ الاغبر الاشعث بين من هموا ليغتال صفيه بليل ، واهتزت قوائم الجامعة في نفسى اذ ذاك ، وخاصة حين تبينت أنها تضم في أعطافها من يحل الغيلة ويسير بالنميمة ويأتمر في الظلام ! ...

« لولا الأستاذ الاغبر الاشعث ما انصرف ظني في الجامعة ولا خاب رأيي في قبة الخالدين ، فقد هوت سيرته بعقيدتي في أهل العلم صناع التاريخ ...

« لم أعد أومن بالقباب الضخمة العاليات ، فإن في قلبها فراغا هائلا وليس في أحضانها شيوخ كبار أو صغار ! »

وتحدثنا صاحبة الرسالة عن خطيبها والدور الذي لعبه أستاذها وزوجه في اتمام هذه الخطبة ، وهنا يبدو أن نوعا من القرابة يربطها بزواج الأستاذ ، وتمضي واصفة حياتها الجديدة منذ عقدت هذه الخطبة ، وهي قريبة الشبه جدا بحياتها من قبل ، فإنها تذهب الى الجامعة وتعود فتقضي وجه النهار وزلفا من الليل مع خطيبها في ندوة أستاذها أو في صحبة أسرته في زيارة أو سينما ، لا يشغلها هم ولا يهتمها شاغل ، وما الذي يقلق بالها وخطيبها يرى في أستاذها ما تراه ، ولا ينصرف خاطره الى ما يضطرم به قلبها نحو هذا الأستاذ ؟ فهي — بالرغم مما تراه في نفسها من مفاتن — دون زوجه في جمالها والاخاذ وشخصيتها القوية

ومنطقها العنيف النادر وذكائها الطائر فوق مستوى الناس !

وتنفض لنا نفسها حين تزعم أنها موزعة النفس مشطورة القلب بين خطيبها وبين أستاذها وبين الجامعة ، وتخشى أن يستبد بها خطيبها إذا تم العقد ، فذلك - في رأيها - طبع العرب مهما يتحضرُوا ، وسجيتهم مهما يتعلمُوا ويتثقفُوا ، وإن أستاذها نفسه بالرغم من رأسه المتحرر في طرائق النظر إلى الأمور ، ونهجه الغربى في حياته الخاصة والعامة لا يخلو أحيانا من عواطف الغيرة والاستبداد في شئون زوجه

وقد بدأت تشعر بالضيق وتبدو لها حياتها سجنًا كبيرًا يصعب على الصدر أن يتنفس فيه ، فإن خطيبها يصحبها معظم الأيام إلى الكلية ، ثم يودعها إلى عمله ثم يلقاها بعد المحاضرات ويشاركها الطريق حتى يبلغا بيتهما ، وكثيرا ما أزعجتها رعايته فبقى معها حتى الاصيل أو حتى تذهب إلى بيت أستاذها ...

ولم تشعر قط بالحرية ، إلا داخل السور ، فهم يضحكون ويسمرون بلا تحفظ ولا يملك أن ينفرد طالب أو طالبة بنفسه ، فكل منهم له أنيس أو جليس أو رفيق ، ثم تقول « وبدوت أنضج الفتيات وأقدرهن على اصطناع الحياء إذا وجب الحياء ، وكشف المفاتن إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، وقد شغلت بابتسامتى الساهرة وصدرى الناهد وعينى الساحرتين أكثر من طالب وأستاذ » ! ...

وتزعم صاحبة الرسالة أنها ترفعت عما يقترفه بعض زميلاتهما من هنات ، فقد كانت بطبعها لا تحب الكلمة النابية ولا النكتة الخارجة ، وكان هذا أمرا غريبا من فتاة ينصت بعض زميلاتهما - وان كن قلة نادرة - الى العبارات النابية والحكايات الخارجة ، وحتى في ساعة الدرس وحساس المحاضرة لم تفرغ جعبة طالب وأحيانا أستاذ من عبارة مستعارة أو استعارة معبرة تقفز لها الدماء الى وجهها ووجه أكثر التلميذات ، وقلما يحمر لها وجه أستاذ وما ضاق بها قط تلميذ !...

ثم عادت صاحبة الرسالة الى الحديث عن أستاذها وفي قلبها لفظ كثير ! وطلبت الى المجلة أن تهديها سواء السبيل وفات أوان النصح ، ولا أدري لصاحبة الرسالة من مصير ..



كانت الجامعة تأذن لنا بالدراسة والبحث خارج مصر فترات متقطعة ، ولم تبخل علينا بالاستزادة من العلم في أوروبا وأمريكا ، وكنت سعيد الحظ في هذه الناحية اذ كانت دراسة الصحافة في بلادنا شيئا جديدا ، لذلك رحبت الجامعة بسفري في بعثات علمية وعملية كلما جاءت دعوة من هنا أو هناك

وقد رتبت لى هيئة اليونسكو جولة لدراسة الصحافة وحقوقها المختلفة في باريس وليل ولندن وجنيف وبرن وروما وميلانو ، وأمضيت ستة أشهر متنقلا في تلك البلاد ، وليس هنا مجال الحديث عما رأيت أو شهدت فقد سجلت ذلك كله في كتاب

وفي لندن التقيت بصديق العمر حسن محمود ، وكان يعمل
اذ ذاك ملحقا جويا ، وهناك علمت أن معركة رائعة مروعة تدور
بين السفير والملحق الجوي ، وقد كان كلاهما طرفي نفيض ،
كان حسن محمود مواطنا يعرف قدر وطنه ، وكان أستاذا لمدرسة
من خيرة الطيارين ، وكان السفير خفيف العقل ، قليل التقدير
لواجبات السفير .

قرر السفير أن يكون للسفارة مكتب للصحافة ، وصادفت
زيارتي يوما تقرر فيه افتتاح المكتب على نحو بهيج ، وقد دعا
السفير الى الافتتاح كل مصري يزور البلاد ، وأغفلني وأنا أحق
الزائرين بهذا اليوم المشهود ! ...

كنت أستاذ الصحافة في معهد الصحافة ، وفي مهمة علمية
للصحافة ، ومكلفا من الجامعة واليونسكو بتسجيل كل جديد
أراه أو أحسه عن الصحافة ! ...

قالت عيون السفير للسفير اني صديق حسن محمود ! ...
كانت سفاراتنا بمنح السفراء ، ولم تك قط أرضا للمصريين ...
ثم دعتنى بعد ذلك مؤسسة روكفلر لزيارة الولايات المتحدة
ودراسة صحافتها ومطابعها واذاعاتها ودور النشر فيها ، وهيأت
لي أسباب التوفيق فيما نددتني له من زيارات

لم يأخذني شيء في طابع الحياة الأمريكية ، فقد عرفت عنها
الكثير مما قرأت في الصحف والكتب أو شاهدته في الاقلام العلمية

وعادية ، وأميز ماواجهنى فى حياة الجماعة ، العجلة فى كل شىء !
كان القوم جميعا على ميعاد هام وخطير ، ان فاتهم فاتتهم الدنيا
بما فيها من خيرات ! ! .

وابان هذه الزيارة المنتجة المفيدة قامت ثورة ٢٣ يوليو فى
القاهرة ورأيت ترحيبا بها فى جميع الاوساط التى اختلفت اليها ،
وهذا شىء طبعى من شعب لا يعرف الملكية ، وهو فى الوقت نفسه
يشاهد عن كثب تصرفات أم الملك فاروق وهى تصرفات لا تليق
بملكة أو أم ، فضلا عما كانت تنشره صحافتهم قبل ثورتنا من
أعمال بعض حكوماتنا المعيبة ..

وفى مدينة لوزيفيل أقيمت الى مأدبة ، أقامها الصحفيون وأساتذة
الصحافة ورجال الاذاعة والتلفزيون ، وقد أضفت الثورة التى
قامت فى القاهرة أهمية على وجودى ، فأنا مصرى من تلك
البلاد التى تحررت بالأمس ، وأنا واحد ممن يباركون الثورة
بحكم الوظيفة التى أشغلها

نعم ، ليس هناك أستاذ فى الجامعة يأبى أن يبارك ثورة تحد
من جشع الرأسمالية وتسعى الى تقريب الطبقات وتقضى على
نوازع الشر التى يخلقها عادة الاقطاع

واذن فتورة القاهرة صدى لما فى نفسى ، وشىء يرضاه عقلى
ويسعد به حسى ، لذلك احتفل القوم بى ، فبينهم رجل ان لم
يكن عارفا ببواطن الأمور فهو على الاقل صورة لما يجرى فى مصر

من أمور . . .

وقد ضمت المأدبة خمسين شخصية من شخصيات المدينة ، معظمهم من الصحفيين وأساتذة الجامعات ، وما كنت أظن أن يشتريني أصحاب المأدبة بمأدبتهم تلك ! فقد استغرق الغداء أربع ساعات ، دارت فيها مناقشات دقيقة حول الثورة وقاروق والصلح مع إسرائيل ! . . .

وقد استطعت أن أجيب على كل سؤال وجه الى ، وكانت معظم الأسئلة عن إسرائيل ، وهى أسئلة سمجة فيها من القحظة الشئ الكثير ، وقد وجهها الى جميع الجالسين الا واحدا صامتا صمت القبور ، وعجبت لما أرى وأسمع حتى خيل الى أنى لست في لوزيفيل بل في إسرائيل ! . .

وغاضت دهشتى حين علمت فيما بعد أن الداعين الخمسين بينهم واحد فقط غير يهودى ، هو ذلك الصامت صمت القبور؟! ..

وعدت الى القاهرة بعد زيارة مجموعة من أمهات المدن في أمريكا ، اختلفت فيها الى دور الصحف والنشر والمطابع والاذاعة ، عدت وفى جعبتى الكثير مما يفيد تلاميذى حين أدرس لهم ما شاهدت ، ومواطنى حين أنشر عليهم مآرايت ، غير أن المقادير لم تواتنى لأحقق الأمنيتين أو احدهما ، فقد كان المكتوب لى فى لوح القدر شيئاً آخر

كنت فى تلك الإثناء أحب مهنة الاستاذية حبا ملك على نفسى

وقلبي وضميري جميعا ، وكان معهد الصحافة عندى شيئا عزيزا جدا ، زملائي وتلاميذى ... دراساته الممتعة .. وما يدور فيه من آراء وأفكار ... كل ذلك كان شيئا عزيزا ، وكان شيئا جديدا أيضا فى كلية الآداب

كان معهد الصحافة شيئا متحركا ، ندب للتدريس فيه نخبة من أهل الفن ، زكى عبد القادر ، نجيب كنعان ، السيد أبو النجاء ، محمد رفعت ، إبراهيم المازنى ، وغيرهم كثير ، وقد جاءوا بأفكارهم وتجاربهم ، فخلقوا جديدا وأذاعوا طريفا ، وجعلوا فى معهد الصحافة حياة وحيوية

كنت أرتب لتلاميذى دراسات عملية فى الصحف ، ومن تلاميذى الذين أفخر بجهادهم ونشاطهم ، الدكتور نجيب أبو الليل وهو عندى أكبر من تلميذ وأدنى إلى القلب من صديق وجيب ، والدكتور خليل صابات وتربطنى به مودة الأستاذ ومحبة التلميذ وإيثار الصديق للصديق ، وكمال عبد الحميد ، ومحمود الجوهري وغيرهم عشرات تضيق الصفحات عن ذكرهم ، ويؤذنى ، أن أنسى سائر المئات من الاسماء التى كان لى فى تنشئتها نصيب ، فالاسماء التى حضرتنى هنا أبقى أصحابها على مفهوم ما بين الأستاذ والتلميذ ، فما روعتهم نازلة أو غاشية ، ولا جروا - فى الشدة - من الأفریز لافريز !!

ألم أزعج أن الناس معادن ؟ ...
وكنت أقيم بين آن وآخر فى بيتى خلفات لتلاميذى وزملائي

حتى ارتبط بينهم بما توحى الروح الجامعية من رباط ، وكنت أتأسى في ذلك ما رأيته في باريس وأنا أزور بعض أساتذتها زيارات طويلة أو قصيرة ، وكانت أم البنين تعرف رسالتها في ذلك الوقت كزوجة أستاذ ، وقد ترك صالون (حوش بردق) أثرا طيبا في آرائها وأفكارها ، فكانت تملأ الفراغ بلماحتها وذكائها حتى كان بعض الأساتذة الأجانب يظنها جامعية اخترتها من بين الاخريات !

لم يكن يدخل بيتنا الى ذلك الحين الا زملاء العمر وقد جاءت أسماؤهم في غير موضع ثم بعض زملائي الاساتذة وزوجاتهم وهم أقرب الى المعارف منهم الى الاصدقاء ، ولم تكن نعرف من الجيرة في العمارة التي نساكنها الا القليلين ، فأنا بطبعي شديد التحفظ في التعرف على صديق جديد ، وصحبة الجيرة كالزجاج الهش لا تقوى على أى ريح !

الجيران في أحسن الظروف معارف ، ويندر أن تقوم بينهم صحبة ، انهم كأصحاب البطاقات ، لا يذكرونك الا في المواسم والاعياد ، ويقبلون عليك طالما تضحك لك الدنيا وترقص الأقدار ، فان ولت وعبست تحاشوك في المصاعد وعلى الدرج ، وأغلقوا أبوابهم مسرعين حتى لا يكلفهم النظر اليك تحية من قريب أو بعيد !

ما تلقيت من صديق بطاقة في عيد ، فالاصدقاء يلتقون عادة.

فى الاعياد ، وقد حمل البريد الى نحو مائة بطاقة فى كل عيد وان
تضاعف الرقم حين أقبل العيد وأنا مدير للنشر والمطبوعات ،
وأخذت بطاقات المعايدة تقل رويدا ثم حثيثا حتى بلغت بطاقة
واحدة فى آخر الأعياد !

كنت أرى فى بطاقات المعايدة لونا من ألوان النفاق الاجتماعى ،
وكانت ضريبة ثقيلة على نفسى أن أجلس فأكتب العبارات التقليدية
فى الرد على هذه البطاقات ، فلما أصبحت بطاقة يتيمة رفعت
صاحبها فى نفسى الى مقام الاصدقاء !

* * *

كان خالى دائما ينصحنى أن أقتصد القرش الأبيض لينفعنى
فى اليوم الأسود ، وزعمت له ساخرا أنتى أملك الملايين .. وأنتى
أسر له بهذا النبأ وأرجو ألا يعلمه انسان ؟ ! !

وسخر خالى من خرافة الملايين ؟

فسألته : هل يأخذ أصحاب الملايين حياتهم بأكثر مما آخذ به
حياتى ؟ .. وفهم الرجل ما أعنيه ...

قلت : يا خال . ان المال ان كان غاية أفسد من طبيعة الانسان ،
انه يعلم الجشع وخسة النفس وخيانة الامانة ... ان كل مفسد
الارض وليدة الرغبة المسعورة فى الحصول على المال ، مع أن المال
فى غايته وسيلة لبلوغ أشرف الغايات ..

يا خال : ان لى صاحباً قطع من يومه لغده فكان له صباغة من

وال ، فتفتحت الافواه تزيد أن تمضغه مضغا وتزدرده ازدرادا ،
ونسوا أنها فضلة كفاح طويل وجهاد مرير في حجارة القيظ وزمهير
الشتاء ، تقيه مغبة السؤال في زمن اذا سألت فيه يد صاحب أو
صديق افتقدت الصاحب والصديق !

يا خال : انى شهدت مأساة يندى لها الجبين الغليظ وتهتز لها
الرواسي من الجبال ...

تعارفا طالبين في الجامعة ثم مضى الزمن فأصبح كل منهما
لصاحبه شقيق الروح ، كان الاول أستاذا ذا ضيت ، وكان الثانى
محاميا مغمورا يتعلق بأذيال الصحبة لعله يطفو ويكون له في
المجد نصيب

وبعد ثلاثين سنة كان الأول بنون ينادون المحامى المغمور
بالعم العزيز ، فقد وجدوه في الدار كأنه صاحب الدار ، يختلف
اليهم في الظهيرة والمساء ، ويقاسمهم الغداء والعشاء ، ويقاسمهم
أيضا - والحق يقال - السراء والضراء . . .

وكان للأول قضية ، عليها يتوقف سمى الرجل ، أينحنى أو
يمضى في الدنيا منتصب القوام ؟

ورجا المحامى المغمور أن يتولاها في المحاكم وألح في التوسل
والرجاء ، فقد كانت من قضايا الجيل ومن يتولاها تصلت عليه
الاضواء . . .

وأبى صاحبنا أن تكون القضية الا في يد أمينة قادرة ، فندب

لها محاميا كبيرا فخلا في دوائر المحاماة ، ورضى - من باب
المجاملة - أن يقرن اسم المحامى المغمور باسم الثبت الاصيل ،
ولا بخوف من الصبى والعريف موجود !

لم يخل الصديق على المحامى الصغير باليد والمعروف ، فسخا
في تقده أضعاف ما يستحق حين جاء الحكم على ما يشتهى ويريد ،
ولم يكن للمحامى الصغير من جهد الا شرف الوقوف الى جانب
العلاق الذى اتزع الحق كأي محام قدير يهز بيانه منصات
المحاكم والقضاء

ومنذ جاء اسم المحامى المغمور في تلك القضية خيل اليه أنه
شئ مذكور ، فبدأ للناس منتفخا كالديكة الرومية ، ومشى في
الارض مرحا ، وكشف عن سوءة في الانسان هي أسوأ ما فى
الانسان من سوءات ... الجشع ... والرغبة فى المال ككلب
مسعور

ويبدو أن نهم المحامى الصغير قد جاوز الحدود بعد أن أصبح
المال فى ضميره الها ترتل له الأناشيد ، فأخذ يوقع بين صاحبه
وزوجه ، ومضى بالنسيمة والدس يزيد فى النار اللهب حتى
استحالت على الزوجين الحياة وهما فى العش الكريم منذ بعيد

وكان المائدة التى جلس حولها ثلاثين عاما وتذوق عيشها وملحها
من غير حساب حتى أتخم وكاد أن يطفح ما تناوله من طعام ..
كان هذه المائدة لا مكان لها فى قلبه الأسود الذى خلا من

الحب ، ولا اعتبار لها في نفسه الامارة بالسوء العاطلة عن كل جميل

ومضى المحامى الصغير بالزوجة الى المحاكم يسب زوجها ويدفعها الى قول غير كريم حتى اغتصب من الساذجة البلهاء مئات الجنيهات ، كآى تاجر خسيس لا يعف عن الصنف والو كان أخط من الطافية والمخدرات ..!

ثم انظر الى المحامى الصغير فى المحكمة وهو يرغب بقالة السوء فى صاحبه ... ان كل ما عليه ينتفض ذعرا ويتبرأ مما يقول ... انها بزته ... انه جوربه ... انه قميصه ... انه رباط رقبته ... انه حذاؤه ... انها جميعا تصرخ من نكران الجميل ، وكأنها تقول لمرتديها : اخلعنى فانى هدية من تسبه وتزرى بقدره ، فقد جاء بنا من بعيد لنبذو فى جسم أصيل ، لا ليزهو بنا عتل زنيم !....

أى والله ، انها هدايا الصاحب الكريم للخذن اللثيم !
يا خال : لقد طلب اليهودى وهو يحتضر أن يأتوه بالصليب ، فقبله وذرف عليه الدموع ! وذهل أهله كيف يقبل الصليب وكان يهوديا فى دينه تزمتم ، وفى كراهيته للمسيحية رأس الكارهين ؟!
ونسى القوم أن الصليب من ذهب !! ...

صدقنى يا خال : ان اليهودى أكرم وأشرف من صاحبنا ، فتلك رسالة اليهود منذ عهد يوسف وموسى عليهما السلام ، ولم يعرف

فى ذمة أصحاب الذمم أن يسقط صاحب من أجل يضع مئآت من
الجنبيهآ ! ...

يا خال : هل من وسيلة للحياة بلا مال ؟

سؤال المستجير الذى عز عليه الفكر والتدبير بعد فعلة المحامى
الصغير ؟ !

وقال الخال ، ونعم ما قال : لاتسمه المحامى الصغير : انه
نذل كبير ! !

قلت يا خال : هل تريد أن ترى المحامى الصغير الذى تطور الى
نذل كبير ؟

قال : يا بنى انه لامر عجيب أن تملك العين على صغرها كل
هذا الفضاء الزاخر ، وتعجز أحيانا عن احتمال النظر الى أفعاله
الاشياء وأهونها ! ..

قلت يا خال : ألك أعداء مثل هذا العدو المين ؟

قال : لم يكن لى قط أصدقاء ! ! !

فى أعماقى ايمان بالله وقدرته ، واحساس عميق بأنه سبحانه
وتعالى دائما الى جانبى ، وقد رأيت الله فى احسانه الى منذ نشأت
صغيرا مضيقا لا أعرف لى قرارا ولا مصيرا

رأيت احسانه يوم دخلت المدرسة الخديوية ويوم التحقت بالجامعة
ويوم استقلت من وظيفتى ، وهى أيام عصية قصدت فيها أعتابه
فأنارت لى الطريق لذلك أرانى عارفا بالجميل أخافه
وأخشاه ، وأتحدث بنعمائه وأفيض فى بيانها ، وأذكره كلما

أسودت الدنيا في وجهي أو غمرت حياتي اشراقة النصر والتوفيق
ان هذا الذي يربطني بالله عظمت جبهته وتعاليت قدرته ، هو
الذي شمع بأنفى في النوازل ، ورفع من شأنى في المحن ، وجعلنى
قوى القلب قوى الجنان ، فانى أؤمن بجبهة من تنهار أمام جبهته
الجبهات ويضؤل ازاء جبروته جبروت المتجبرين ، وتصغر المردة
أمامه فاذا هى أقزام ♦♦♦♦

لأنسى الصبيين الصغيرين وأمهما الى جوارهما وقد فتحوا
أفواههم دهشة وحيرة لهذا الرجل الذى يدعوهم الى السينما
يوم قطعت بينه وبين رزقه الاسباب ؟

وقالت أم البنين : ما أظنه يوما تزار فيه السينما !

قلت : يا امرأة . اهدئى ولا تجزعى حتى لا ينساب الى قلب
الولدين خوف أو ضيق ، واذكر الله ♦♦♦ انه هنا ♦♦♦ واذا
طرق بابنا الزائرون فاعلمى أنها زيارة العزاء وليست بعدها
زيارات ! ولا تقدمى لهم القهوة بل اسقهم شرابا حلوا المذاق ! ♦
وما كنت يوما شديد الثقة بالله ثقتى به فى تلك الايام ♦♦♦

وقلت لأم البنين : ان الله الذى سند الصبى الصغير وهو
يطرق باب وزير المعارف ليتعلم ، وسنده وهو يقابل مدير الجامعة
ليتعلم ، وسنده حين استقال من وظيفته فى قصر العيني ، وأعانه
على ان يرد لك عافيتك حين أصابك المرض الخطير ، انه سيسنده
اليوم رجلا استكمل من العلم قدرا غير يسير ، ومن الصيت قدرا

غير قليل ، ومن الايمان به ايماننا لا حدود له ولا قيود

وصبرت أم البنين ، ومضى الصبيان يأخذان حياتهما كأن شيئاً
في حياة أبيهما لم يحدث ، ومضيت أنا أسعى في الارض حتى أوفر
لهذه الاسرة ما اعتادت من حياة هي أقرب الى الترف وفيها من
السعة الشيء الكثير

وما حزنت قط حزني لموقف بعض الزملاء حين تأزمت الامور ،
فقد أدبروا وكانوا من قبل يقبلون اقبالا ، وشاركني في هذا
الحزن طبابخ البيت فؤاد ، وكنت قد نشأته فعرف ذوقي وصحبي
وسرى ، وكان اذا جاء الليل ودخلت سريري أخذ يقص علي
ما سمع من أنباء وما رأى من أحداث ، ويعلق في براءة الأطفال
على أخلاق الناس ثم يمصص شفثيه أسفا على الصحاب الذين
راحوا فجأة كأن لم يكن بيننا وبينهم حبل موصول !

وقلت لفؤاد وهو في منزل الالين ومقام الصديق : اننا نجتاز
أزمة وأحب أن أوازن بين المدخول والمصروف ، وصدق الطباخ
وعده فقبض يده في كل شيء وأعانتني على ما أنا فيه

لعله الوحيد - بعد أمي - الذي حنا على في المحنة والضيق !..
وأخذت الأيام تمضي وفي ركابها أتون يصهر معدني وغربال
يسقط عن كاهلي الشعور بالضعف والخور ، وواتاني الله روحا
عالية وقلبا صلدا زاداني ثقة فيه سبحانه وتعالى ، وكلما ضاقت
بى الحال مر طائف يهمس في أذني أن أصبر على الدنيا ولا تخش
شيئا ...

وصبرت حتى دفعتنى الحاجة الى زيارة صاحب أكبر مؤسسة
للصحافة والطباعة فى مصر ، وهو زميل من زملاء العمر ، وطلبت
اليه أن ينشر لى كتابا مقابل مائة جنيه أسدد بها مطالب
العيال .

واعتذر الزميل الكريم ! ...

وكنت قد أصدرت كتابا عن سيرة الملك عبد العزيز آل سعود
كشخصية عربية لها فى تاريخ العرب تاريخ وسميته (انسان
الجزيرة) وبعثت بهدايا من نسخة لبعض أصدقائى فى الحجاز ،
وبعثت بنسخة للشيخ محمد سرور الصبان الاديب الشاعر ،
دقيق القلب رقيق الحاشية ، وأخرى للشاعر مرهف الحس الامير
عبد الله الفيصل وهو شديد الاعجاب بجده الكبير كما أهديت
نسخا لغيرهما من الصحب الذين يسيغون مثل هذا اللون من
التأليف .

عدت الى البيت والحزن يمزق قلبى لحاجة الولد وندرة
الصاحب ، فاذا الله الى جوارى ..

وجدت رسالة من صديقى الشيخ سرور الصبان ، وهو زعيم
عربى له قدره وفضله ، وانه لمعدن من الرجال جدير بكتاب ،
وجدت رسالته وفيها ، تحية رقيقة وتقد جميل لكتابى ، وشكر
على هديتى ، ثم شراء خمسمائة نسخة من « انسان الجزيرة »
توزع هدية منه على فضلاء المصريين ! !

رجوت صديقا وزميلا أن ينشر لي كتابا مقابل مائة جنيه
فاعتذر ، وإذا الله سبحانه وتعالى يمسح على كفتي ، ويجفف
عبرة كادت أن تطفر من عيني وأنا أنصت الى اعتذار الزميل
الصديق ، ويقول لي : يا هذا انك آمنت بمن يستطيع وحده أن
يشد أزرك ويسند ظهرك ويقيك شر العوز والحاجة ، بل يكشف
بفضله فضل من قبض عنك فضله ، ويكشف لك من خيرااته
أضعاف مارجوت غيره من خيرات

يا هذا ... ان ربك لكبير ...

وعدت من عند سكرتير الشيخ وفي جعبتي خمسمائة جنيه ! ...
ووقفت علامة الطريق الحمراء سيارة احسان عبد القدوس الى
جانب سيارتى ، فسألنى عن الحال ، وشرحت له فى كلمتين قصة
الامس مع الزميل الصديق ، فرجا أن ألقاه عصرا ، فاذا التقينا
اشترى حق نشر الكتاب الذى اعتذر الصديق الزميل عن نشره
مقابل مائة جنيه ! ثم زاد فطلب أن أكتب له فى كل أسبوع مقالا
مقابل أجر معلوم ! ...

الناس معادن ؟ ! ...

ثم يمضى أسبوع اثر أسبوع ، وكل يوم تباع مئات النسخ من
« انسان الجزيرة » حتى خشيت الحسد ، وقال الاصدقاء سعداء
ساخرين : لقد أصبح لصاحبنا رصيد ، وانتهى الرصيد الى
عدة آلاف من الجنيهات ! ! ...

وقالت أم البنين : لقد آن لى أن أنال مما رزقك الله ، ومن حقى

أن أحيل هذا النصيب كما أشاء الى ما أشاء ! وفهمت أن حوانيت
الاحذية والفساتين والعطور سيصيبها خير كثير ؟! ..

وقال الصبيان : لقد نجحنا في الامتحان ، وأنت اليوم ذو
مال ، فعليك بالدراجتين وكساء الصيف أشكالا وألوانا ، وبيت
نصطاف فيه كما عودتنا في الشدة والرخاء
وكان للأسرة كل ما تريد ..

وعزمت على أن أبسط لنفسي حقها أيضا ، فشددت الرحال
الى أوروبا لاقضى في جبال فرنسا وريف انجلترا شهرا ، واذا
بى أدعى الى اللقاء نحو عشرين حديثا في اذاعتى البلدين ، وأجر
الاحاديث في تلك البلاد مجز ومفيد ، واذا بى أقضى الوقت
في البحث والدرس لتجىء الاذاعات على النحو الذى أحبه لنفسي
ولمن يسمعونى ، واذا بى لا أصرف من التحويل الذى حملته معى
قرشبا ، بل فاض الخير فعدت الى القاهرة مزودا بكل جميل
وطريف ومفيد لام البنين وبنيتها ..

وكان صديقى وتلميذى الاميرالاي كمال عبد الحميد على
صلات طيبة بالمستولين في الكويت ، فتحدث الرجل عنى حديثا
يكشف عن رجوليته وخلقه الكريم ، وآزره فيما سعى اليه
الصديق الأستاذ فكرى أباطة ، وصاحبى الدكتور نور الدين
رجائى ، وما أخذت سعى كمال عبد الحميد مأخذ الجد قط ، فقد
كنت في تلك الايام قليل الثقة بالناس ، لذلك سافرت الى أوروبا

وليس في ذهني شيء عن الكويت ، ولا عن لون العسل الذي
رشحني له تلميذي الحبيب

فلما عدت من الرحلة التي بسطت لنفسي فيها حقها ، علمت
أن مدير المطبوعات والنشر الكويتي ينتظر عودتي من أسبوعين ،
وعتبت على أم البنين أن تهمل الأبراق لي أو تحدثني في التليفون
لأعود ، فإن انتظار الرجل أسبوعين عمل لا يليق ، فإذا بها تنقل
لي حديثاً عنه دفعني دفعا الى تقدير الكويت وحب الكويت

قال لها الرجل : ما ينبغي أن أقطع عليه أنسه أو أقترح عليه
إجازته ، فقد لا تتفق ! وحتى إذا اتفقنا فإنه شيء بغض أن
ينتزع الإنسان من لهو الحياة في لندن وباريس الى حمارة القيظ
في الكويت !

أليس هذا حديث رجل معقول ؟ أليس رأيي فيما رأي علامة
على سماحة النفس والصدر المستريح ؟ أليس هؤلاء الناس
جديرين بالصلة والمحبة والتقدير ؟

ثم التقيت بالصاحب الذي كآني له صاحب منذ قديم ...
التقيت بأول من عرفت من الكويتيين ، فإذا هو مرآة لهم مجلوة
ليس فيها خدش ، وواجهة ليس فيها غيام كثير أو قليل ...

التقيت بالصفاء في أسمى معانيه ، وأحسست قلبا خلا من كل
تقيصة ، وأنصت الى حديث برأ من الدغل والخداع ...

أقسم أن مدير المطبوعات في الكويت قد حببني في الكويت
وأهل الكويت، فلم تمض لحظات على لقائي للسيد بدر الخالد
البدر الذي أعجبني اسمه ورسمه حتى وقعت عقدا لخدمة الكويت
كخبير لدائرة المطبوعات والنشر ...

شد المصريون الى أرضهم بقلوبهم وأجسامهم ، فلا فكاك لهم منها ، ولعل سهولة العيش في سهول مصر هي السبب الاول في هذه الحقيقة ، لانا ، منذ آلاف السنين ، ونحن نغذ السير في العالم شرقا وغربا ، ثم نعود ولا نخلف وراءنا أحدا من مواطنينا ليستقر هنا أو هناك ، أو يمضى عمره في حياة هذا البلد أو ذاك

ونحن المصريين ، لا نحب فراق أرضنا أو التغرب عنها ولو الى حين ... ليس في الدنيا أجمل من مصر في عقيدة المصريين ، مهما يكن في مصر من شظف أو ضيق أو أثقال تنوء بها الظهور أو النفوس

راق لى أن أضرب في الارض حين ضاقت بى الدنيا ، واخترت أوروبا مكانا أسعى للرزق فيه ، وتخيرت باريس بالذات حيث لى بها علم ، وحيث زرتها سبع مرات وبقيت فيها كل مرة شهورا تعقبها شهور ، ولا تخلو من صديق لى في هذه المؤسسة أو تلك ، وكنت أرجو أن أجد في اذاعة باريس مكانا يناسبنى ، بيد أن التنافر الذى أحسسته بين سياسة بلادى وسياسة فرنسا جعل من المستحيل على مثلى أن يلتصق برزقه هناك ، فمضيت أنتقل من باريس الى جنيف الى غيرهما من البلاد حتى استقر بى المقام

فى بيروت ، وكدت أصل عيش فيها وأربط طيرى بها ، غير أن
القدر كان قد كتب لى مصيرا غير هذا المصير ، وأرضا غير تلك
الأرض ، لأغذ السير اليها وفى قلبى الطمأنينة والسلام . . .

واختار القدر جدة ثغر المملكة العربية السعودية ليكون هو
الأرض وهو المصير . . .

والتقيت فى بيروت بصاحب أول وأكبر مؤسسة للطباعة
والنشر فى الحجاز السيد أحمد عبيد ، وهو رجل رقيق الحاشية
فيه أصالة ، وقد حدثه عنى صديقى أحمد قاسم جودة ، واختارنى
مستشارا لمؤسسته التى شغلتنى شهورا حتى استوت أمورها
ونضجت فاكهتها ، وتوجت جهدى بإصدار مجلة (الرياض)
وهى أول مجلة أدبية اجتماعية مصورة عرفتها المملكة السعودية ،
ولم تعرف من بعد لها ضربا

وكان القدر صاحب رأى الأول فيما كنت فيه ، اذ أقبل
الصيف ، وصيف جدة شىء ثقیل على من أرهفت الحوادث
حسه ، فلم أطق صبرا عليه ، فضلا عن التحنان للوطن وقد غبت
عنه وعن الولدين نحو تسعة شهور ، ومرض الغربه كما يقولون
طبع فى المصريين ، والبعد عن مصر يهد الأعصاب التى قدت من
حديد ، وليس بعد مصر بلد يطيب فيه العيش لمصرى ، وان
كأنت مواطن العربيه كلها وطنا لكل مصرى يسعى الى الرزق
متقطع أو موصول

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
وصدق شوقى أمير الاحساس بكل نبيل

ثم ودعت الصاحب الكريم أحمد عبيد ، وعدت الى القاهرة
فترة من الزمن لأتركها الى الكويت حيث طابت الى الحياة فى
العمل وسعدت بالصحب الجديد من خيار الكويتين

كنا فى أواخر شهر أغسطس حين وقعت عقد العمل فى الكويت
كان جو القاهرة ثقيلًا على الصدر ، وما شعرت بضيق كما
شعرت اذ ذاك ، ورأيت نفسى غير قادر على الكلام الا فى الفطير
من رأى العاقل من المعانى ، الخالى من كل لمحة أو فطنة
وكنت قد بدأت فى انشاء كتاب عن جانب من تاريخ صحافتنا ،
فكان الملل يسيطر على قلبى وعقلى جميعا ، وكادت الرطوبة
التي أخذت علينا أنفاسنا أن تحطم أقلامنا وتهدد شجاعتنا وتمحو
ما فطرنا الله عليه من رعاية الحق فيما نكتب ، والرطوبة تخلق
دائما أزمة فى نفسى ، وتفسد عادة طبيعتى فى النظر الى الأمور
والاشياء ، وترسم حدودا لنشاطى بحيث لا أستطيع أن أتجاوزها
أو أتخطاها

وقلت لصاحبى مدير مطبوعات الكويت : إذا كان هذا هو
جو القاهرة فيا لى من جو الكويت !

قال الرجل كلمة صدق : إن جونا مهيبا تعل رطوبته وتهب
ريجه مثقلة بالسفا والحصي ، فإن مواطني يعالجونه على نمط

فريد ، فلا يعوق نشاطهم عائق ، ولا ترهبهم سطوة الرياح التي
تعصف بالصوت ان علا أو يحبسها غبارها عن الوضوح والبيان ،
وتقصف القلم ان حدا الى الصحيح من الامور !

وقال ضاحكا ... يا للقاهريين من صيفهم ! ... وبورك في
صيف الكويتيين ...

ونزلت من الطائرة في مطار الكويت ظهر يوم شديد الحرارة ،
وكان في استقبالى سكرتير دائرة المطبوعات والنشر السيد فاضل
خلف ، وعجبت أن التقطنى الرجل من بين خمسين راكبا ، وأبطل
عجبى حين قال : وصفك السيد بدر ، فرأيتك أقرب الى القصر
في الرجال - قالها بالحياء يغمره - أسمر اللون - أشيب
الشعر ، سريع الحركة ، ثم خلع على بعض النعوت التي تسر
خاطر صيف جديد !

وأعجبني خالد خلف ، وراقنى أن يتميز سكرتير الدائرة
بالبرقة والآداب الجم ، والتواضع وهو سمة من سمات أهل
الخليج

وذهنا الى دائرة المطبوعات ، وكانت حجرتين في بناء حديث
في الشارع الجديد ، وكان في سنة ١٩٥٥ جديدا حقا ، ومع أن
عشرات من الشوارع الجديدة قد شقت بعد ذلك وهى أطول
وأوسع منه ، الا أنه مضى يحمل اسم الشارع الجديد !

وقدمنى السيد فاضل الى الموظفين ، والمراقب المعنى السيد

أحمد منيمنة ، وهو لبناني من فلسطين ، ومن الأسر العربية المعروفة في تلك الجهات وكان - ولا يزال - يشغل وظيفة المراقب الفني لمطبعة الحكومة وهو رجل كفء قادر على العمل ، كريم الخلق ، جم الادب ، حلو الخصال ، ورغبت أن أتعرف الى الجميع ، العمال والسعاة والسائقين ، وكان عدد الجميع في الدائرة لا يتجاوز العشرين وهم اليوم بضع مائين ! ...

ثم انتقل بن فاضل الى الفيلا التي اختاروها لي في الصليبخات. وهي احدى ضواحي الكويت ، وترقد في حوض الخليج وتمضي المساكن في رمالها صفوفاً ، وهي متشابهة متجانسة يتوه في التعرف عليها زائرهما بل يتوه فيها أحياناً بعض الساكنين

وقد أعجبنى كل شيء في مكنتي من موقع وأثاث ومعدات، وتهوية وتبريد ، فقد كان ذلك غاية المنى من أجل الولد وأمه ، وأنا أعلم كم تريد أم البنين من رغبات وهي تنهياً للحاق بي الى بلد كانت من أشد الناس معارضة في السعى اليه أو العبل فيه ...

ثم ذهبنا الى « جراج الغانم » واخترت سيارة جديدة ، واخترت سائقها أيضاً ، فقد كان من حقى كخبير أن تكون لي سيارة ، وكانت متاعب السيارة في سائقها وهو نصف عربي ، فقد كان نصفه الثاني على الضفة الأخرى من الخليج !

لم يفهم أحدنا الآخر .. ان قلت له : حاسب ! أى احذر الطريق قال لى : على أى شىء أحاسب وليس معنى مصارى ؟ والمصنارى هى النقود فى تعبیر الكويتيين ؟ وان قلت له : دغرى ... نظر بدهشة وعطل المرور ! واضطرت الى تعلم اللهجة والعبارات الكويتية ليفهمنى الرجل ، فكتبت فى ورقة : دربالك يعنى حاسب ! وسيدا أو جبل يضم الجيم وفتح الباء يعنى دغرى ! ... وغير ذلك من ألفاظ ، وكنت اذا حاولت التحدث اليه أخرجت الورقة ونقلت اليه ما أريد ؟ ! ...

ثم زرت فى اليوم التالى شيوخ الكويت ، وهم أمراؤها الذين يسوسون دوائرها المختلفة ، ومنذ تعرفت الى بعض منهم بقيت صلتى به وثيقة الى اليوم ، وكان فى الكويت اذ ذاك الشيخ سعد الغبد الله نائب الشرطة وابن الحاكم العام وهو شاب رقيق الحاشية تميز بقلبه الكبير وخلقه المستقيم وعقله المستنير ، وقد أحسن لقائى والاحتفل بمقدمى ، كما خياني وأحسن تحيتى رئيس دائرة الكهرباء والماء الشيخ جابر العلى .

وكان عمر دائرة المطبوعات والنشر فى الكويت عدة شهور يوم التحاقى بها فى سنة ١٩٥٥ فعكفت على دراسة نشاطها وبدأت أرسم لهذه الدائرة ما هى جدرة به ، مغنيا لا بتنظيم أقسامها فقط بل برسالتها فى مقام الكويت وحياته العامة ، واقتضى ذلك أن يعمل الموظفون صباحا وعصرا ، وقد يطول العمل الى ساعة

متأخرة من الليل ، وتقذني كبار المصريين وقالوا : ماهذه العجلة ؟
يا أخى على مهل ، فأمامك السنوات لتنتج وتفيد ! ...

اننى صورة ممتعة للمصريين اذا نزحوا عن بلادهم ، أحيا فى
قلق ، وأعيش على أمل العودة الى الوطن الحبيب ، وقد عاجلت
القلق بالعمل ، العمل دون توقف ودون هوادة ، وكم كرهت أيام
الجمع فى الكويت ، وحمدت الله على أن الأعياد الرسمية قليلة
وليست بهذا السخاء الذى عرفناه فى مصر منذ قديم

لقد أنقذنى الكويتيون من نفسى ...

كان الهم يشغل قلبى ، وكان الضيق بالحياة يسيطر على حياتى ،
فاذا القوم يحسنون استقبالى ويكرمون وفادتى ، ويسخون معى
فى كل شىء ، قلت لأُم البنين : يا امرأة : اننا هنا نخدم أصحاب
الدائر ، ونخدم بلادنا فى خدمتهم ، ونخدم أنفسنا بقبض اليد عن
الاسراف ، وعلينا أن نعض بالنواجذ على الدائق والسجوت ،
ويكفى ما عندنا من أقمشة وعطور ! ! ...

وقد كان ...

لم يكن لدائرة المطبوعات والنشر شيخ بالذات ، فقد كنا
تتبع هيئة مكونة من بعض الشيوخ وبعض المواطنين الكبار ،
وكان هذا الوضع مؤذيا للدائرة ووظيفتها ، وكثيرا ما ثبط همتها
وعطل حيويتها ، وهى فى ذمتى أخطر دائرة فى حياة شعب يتطلع
الى أسنى معانى الحياة .

وقد رأيت في الكويت نهضة تفوق الخيال ، وقد استخفت هذه
النهضة على جميع بلدان الوطن العربي ، حتى أن القوم في مصر
لا يعلمون شيئا عن الكويت ، بل أن أهل العلم عندنا أخطأوا موقع
هذا البلد في الرسوم الجغرافية ، فرأيت أن تكون فاتحة أعمالى
التعريف بالكويت وأن أكشف عن هذا الجديد الذى يجهله العرب
وتجهله مصر خاصة ، بطبع كتاب ضخيم عن الكويت وسميناه
(سجل الكويت اليوم)

ولا يزال « سجل الكويت اليوم » خير دعاية من الكويت ...
ثم وضعت تقريرا عن نظام الدائرة وأقسامها وأخذ به القوم
ولعلمهم يسيرون على هديه الآن

ثم رأيت المطابع الجديدة ملقاة فى الميناء فى صناديقها ،
رابضة تنتظر من ينتشلها الى مكان تنصب فيه وتهدر بطبع كل
مفيد ، فاقترحت أن يختار لها المكان فى أى مكان ! وتقد الاقتراح
بقرار من مجلس الشيوخ

ولم أجد فى الكويتيين واحدا له علم بالطباعة فاقترحت أن
نبعث بعضا من شبان الكويت الى القاهرة ليدرسوا ويتعلموا فى
مؤسساتها المطبعية رسمية وشعبية ، حتى اذا عادوا كان الامر
اليهم فى شئون مطبعتهم ، وهذا اتجه به يجب أن يكون فى كل
دائرة نصب عين كل خير ... وقد كان ...

وشعرت - للأسف الشديد - أن مقترحاتى لم تلق مكانها من

التأييد عند بعض الناس ، فانشاء مطبعة حكومية بدا لبعض من هذا البعض معطلا لمطابعهم ، وهي في واقع الحق مطابع بدائية ولا تستطيع أن تواجه حاجة الحكومة التي يضطرد نشاطها، والتي تضطر بعض دوائرها الى طبع أوراقها وسجلاتها في بيروت والقاهرة بأثمان فاحشة

ثم بدا لبعض من هذا البعض أن تعليم الكويتيين فنون الطباعة من شأنه أن يقطع أرزاق العمال العرب الذين يعملون في مطبعة الحكومة وقد سعوا اليها سعى الغريب الذي يريد أن يعيش في هذا البلد ويزيقيهم

ولم أفكر في (البعضين) وأنا تغمرني الحماسة ويدفعني الواجب لاقامة المطبعة وتعليم الكويتيين مهنة الطباعة ، فان غضب (البعضين) لم يكن في حسابي ، وحين وقع هذا الغضب وثار تائرة هؤلاء الناس وانتشروا يذيعون الاحتجاج المقول والمكتوب ويبدون المعاذير تارة ، والاقاويل أخرى ، لم تهتز شعرة في رأسي ، اذ كانت قضية (البعضين) خاسرة ، لان حكومة الكويت قد اشترت جزءا من المطابع فعلا قبل أن أندب لعملى ، وكان لا بد أن تنصب وتقام ، وكان لا بد أن تستكمل هذه المطبعة وأن يكون أمرها للكويتيين أنفسهم ظال الزمن أو قصر ، لا للمصريين ولا لغيرهم ، الا اذا دعت الحاجة الى الاستعانة ببعض من هؤلاء أو هؤلاء

وأقيمت المطابع وهدرت في أكتوبر ١٩٥٦
وتعلم الكويتيون في مصر الطباعة وشغلوا وظائفهم بعد
سنتين ...

وأصبحت - أنا - ثقيل الظل على كل صاحب مطبعة ...
ثقل الظل على الكثيرين من الخوانا غير الكويتيين الذين يعملون
في مطبعة الحكومة عمالا وفنيين !

وزاد الطين بلة كما يقولون ، صدور قانون المطبوعات الخاص
بالصحف والكتب ، والمجلات ، وهو القانون الذي وضعه
لحكومة الكويت استأذنا المغفور له الدكتور كامل مرسى الثبت
الحجة والفقيه المصري المعروف ، وشاركت أنا بالرأى في بعض
مآلجاء في هذا القانون

وقد كنت - في أول الامر - سعيدا بوضع هذا القانون لعدة
أسباب ، فهذا أول قانون يوضع لتنظيم ناحية من نواحي الحياة
في الكويت ، والكويت شعب متطور واع جدير بأن تكون له
نظم وقوانين ، وموافقة الحكومة الكويتية على وضع هذا
القانون فيه تسليم منها بكثير مما كان لها من حقوق ، ويعنى ذلك
تعاقدا بينها وبين الشعب على أن يكون القانون هو الحكم
وليست النزوات أو الأغراض هي الحكم فيما ينشأ من خلاف ،
ثم ان صدور الصحف في الكويت خاضعة للرقيب أمر ثقيل على
من يعرف مقام الصحافة في حياة الشعوب ، وصدور هذا القانون
سيغنى المطبوعات من الرقابة والرقيب ، وثالث ما أسعدنى أن

أرى صحفا في الكويت تنقد وتوجه وتشور على كل عيب ، وقد
أباح لها القانون النقد في أوسع نطاق

وغضب على كثيرون ، كيف أسأهم في وضع قانون يحد من
حرية الصحافة ؟ وقال هؤلاء نريد صحفا بلا قانون ، أو قانونا
لا يعرف للرأى حدودا ولا يرسم لأقلامنا الطريق !

وقلت ان القانون الذي وضعه كامل مرسى انما نقله في معظمه
من أكثر قوانين مصر والبلاد العربية حرية ، ثم انه لا يوجد في
العالم شعب متحضر يصدر صحفا بلا قانون ، وليست العبرة
بالقانون انما العبرة بتطبيق القانون !

وسخط بعض هؤلاء الشبان على كامل مرسى وعلى من أجل
هذا القانون . وآزرهم بعض أصحاب المطابع وبعض اخواننا
في مطبعة الحكومة ، واثم يغير ذلك من رأيي في أن وضع القانون
عمل يشرف واضعه ، ويبين عن أشرف المقاصد ، وموافقة الحكومة
عليه كسب شعبي كبير . . .

ثم اقترحت على المجلس الاعلى فيما اقترحت إنشاء مجلة
للأدب والفنون والعلوم تكون رسالة النور والعلم من الكويت
للمناطقين بالضاد في كل مكان ، ووافق المجلس على الاقتراح وكان
ذلك في ابريل ١٩٥٦ وبدأنا نعد لها ونرتب من أجلها سنة كاملة ،
حتى اذا بدت ملامح المجلة واضحة عزمنا على العودة الى
الوطن الكبير

وظهرت مجلة (العربي) بعد سنة أخرى . . . كانت لنا فيها
الفكرة ، ووفق الله غيرنا الى اصدارها في هذا الاطار الدقيق
وما ينبغي أن تفوت سيرة (العربي) دون أن أسجل الفضل
لاصحابه ، فان وراء هذه التحفة الفنية رجلا آثر أن يكون مجهولا
وهو أديب كويتي يعرفه مواطنوه ، وأحب أن يتعرف عليه عشرات
الآلاف الذين يقرءون (العربي) . . .

انه الاستاذ أحمد السقاف نائب المدير العام لدائرة النشر
والمطبوعات

انه في هذا الميدان قائد حمل على كتفيه عبء المعركة وترك
لغيره الزهو بالبنود والاعلام ! . .

ما كرهت في حياتي شيئا الا نكران الجميل والضياع بذكر
من يستحق الذكر في كل عمل جليل

لذلك ينبغي أن نسجل لمدير المطبوعات حقه فيما نالت دائرة
المطبوعات والنشر من السداد والتوفيق ، فكل عمل عظيم ، كان
هو مرجعه وهو الذي ركض من أجله حتى تهيأت له أسباب
النجاح ونحن ورائه عوامل تأييد وتشجيع

ان بدر الخالد البدر مواطن كويتي يستحق تقدير الوطن ،
ولا أعنى بالوطن هنا ، الكويت ، بل أقصد الوطن العربي جميعاً
الذي أفاد من نشاطه وإخلاصه وحسن نواياه

ليس بقلبي لفظ كثير أو قليل نحو أي كويتي ممن ضاقوا

يا رائي ولم يعجبهم ما ذهبت اليه من أمور ، فان حبي للكويت
يكاد يبلغ ما أشعر به من حب نحو مصر ووطنى الكبير ، ذلك أنى
عرفت فى الكويت المودة والصفاء ، وعرفت فى أهلها خلأق ينذر
وجودها فى مربعتا الكبير

قال صاحب أديب وأنا أتحدث عن الكويت وأهل الكويت فى
مجالس القاهرة :

يا أخى : فى مثل هذا الحماس ، وبهذه العواطف لا يتحدث
الا العشاق وهم يروون ويصفون ؟ ! ..
هذا هو نصيب الكويتيين عندى ؛ وليس يعينى مالى عندهم
من نصيب

لم يكن نظام الحكم فى الكويت مكتملا فى سنة ١٩٥٥ وقد
أصبحت الحياة الرسمية اليوم أكثر وضوحا وملامحها وضاءة
الجبين

وضعت القوانين ونظمت الإدارات ، ولم يعد الإنسان حائرا
لمن يشكو مغتصبا أو معتديا ، فقد كان يقف فى ساحة الصفاء
ويشاور عقله : أذهب الى الامن العام ؟ أو الشرطة ؟ أو المحاكم
ليقيم دعواه ؟

جهة واحدة الآن تستطيع أن تلجأ اليها شاكيا إن عز بينك
وبين خصمك الاتفاق . . الى دائرة العدل ، وليس فى غير دائرة
العدل قاض يفتيك بكلمة الحق ، وكانت كلمة الحق من قبل
موزعة بين ثلاث جهات

والتعليم في الكويت قدوة وأسوة والفضل في هذا بعد
الكويتيين أنفسهم يعود الى رجل دخل التاريخ من أوسع أبوابه ،
وهو الشيخ عبد الله الجابر الصباح رئيس دائرة المعارف ، ثم
الى موظفيه كبارا وصغارا ، كويتيين وغير كويتيين ، وفي مقدمتهم
عبد العزيز حسين وعبد المجيد مصطفى ، والاول مدير المعارف
وهو كويتي يعرف واجبه ، والثاني مصري جدير بكل تحية
وتقدير

ان للنفط دخلا كبيرا في الصورة البديعة التي يبدو عليها
التعليم في الكويت ، فهذه البنايات الضخمة الجميلة للمدارس ،
وهذه اليد المبسوطة للقائمين على التعليم ، وهذا السخاء في رعاية
البنين والبنات ، يرتبط كل هذا بما أفاء الله على البلاد من خيرات
النفط ♦

ثم ماذا ؟

الجميع يتعلمون وقلة تستكمل دراستها في الجامعات خارج
الكويت ، وهذه القلة تدرس في أكثرها دراسات نظرية

لقد بذل المشرفون على التعليم أقصى الجهد لتوجيه المتعلمين
توجيها جيدا يناسب حاجات البلاد ، وبذلوا من ألوان التشجيع
غاية ما يبذل في هذا الباب

ويبدو أن الأمر يحتاج الى جهد جديد وتشجيع جديد لينتج
كفاح العاملين الغرض المطلوب فيصرف الطلاب عن الدراسات

النظرية ويفيدوا من الدراسات العملية التي لم تأخذ بعد
مكانها بين المتعلمين في الكويت

ليس في الكويت — على قدر علمي — إلا مهندس واحد ،
ولا أدرى مكانه في فروع الهندسة ، وليس فيها أكثر من طبيب
أو طبيبين ، وليس فيها إلا قلة نادرة ممن مارسوا التربية والتعليم ،
وحتى هؤلاء يهربون من وظيفة المعلم وهي أشرف الوظائف في كل
عرف ودين ...

انه لشيء محزن أن يتجاوز الكويت في تعدادهم ربع مليون نسمة
ويفتقد بين أبنائه المعلم والمهندس والطبيب ؟

انها مفارقة صارخة ... أن يعيش هذا الشعب الغني القادر
على الاقتراض ... الاقتراض الاطباء والمهندسين والمعلمين ! ..
فاذا كان هذا ميسورا اليوم ليسار الدولة فماذا لو جف النفط
أو قل مدخوله أو غلبته الذرة ولم يعد له كل هذا المقام
المقدور ؟

هذه وجهة نظر أسجلها كأني كويتي يخشى الأيام ، ولا تنسوا
أني معلم قبل أن أكون صحفيا أو خيرا للنشر والمطبوعات ...

رأيت في دائرة المطبوعات والنشر زميلا تأنس له بعد النظرة
الخاطفة ، وتحيه ولا تسلمو مجلسه ، انه دائرة معارف للعالم
والشعر والحكاية والرواية ، متنقلة من مكان لمكان ... انه
جيل نادر بين أجيال العرب بما يحصل قلبه من حب للجمال ، وبما

يحمل أيضا من هموم الحياة ... انه صديقى السيد عبد البارى الزواوى ... وهو سيد بأصالته وطبعه وسيرته فى الناس ... ما كان يمر يوم الا وأرى الزواوى فى الدائرة أو فى بيتى أو بيته ... وفى بيته كون مكتبة ، له فيها آلاف الأوراق التى كتبها للتاريخ ولم تطبع بعد ، سجل فيها أحداث الوطن العربى يوما بعد يوم ... انه يذكرنى بالجبرتى ، ومن عجائب الأمور أن يكون أسلوبه كأسلوب الجبرتى صاحب العجائب فى الرواية والأخبار ! ...

هذا الرجل فى دائرة المطبوعات والنشر ، ولو كان الأمر بيدي لاخترت له فيها وظيفة جديرة بعقله الواعى الكبير ، فانه أكبر جدا من أن يكون رسولا للمشتريات ! ! ...

وفى بداية صيف ١٩٥٦ عين لدائرة المطبوعات والنشر شيخ جديد هو الشيخ صباح الاحمد بن الحاكم السابق للبلاد المغفور له الشيخ أحمد الجابر الصباح ، وكان من حكام الكويت المعدودين ، وفى أيامه أكرم الله الكويت بالخير الوفير وتفجير النفط من غير حساب

والشيخ صباح الاحمد شاب يرتاح الانسان لسماحة الطيبة ، وفيه من أخلاق الأمراء كل ما فى الأمراء من أصالة وحسن تدبير ، وهو من أنشط رؤساء الدوائر وأقربهم الى قلوب مواطنيه ... تقى لا تقوته فريضة ، ورع لا تصدر عنه كلمة سوء

كان اختياره شيخا لدائرتنا مفترق طريق لهذه الدائرة ، فاذا الحياة تذب فيها وكان نبضها من قبل وئيدا بطيئا ، وهو شيخ مستريح الصدر ، صبور ، قادر على العمل ، يفيض وطنية ، مؤمن بالعروبة والوطن العربي ايمانا منقطع النظير

والن أنسى يوم وقع الاعتداء الثلاثي على مصر ، فقد كان شيخنا قائدا في الميدان ، أذن لي أن أكتب افتتاحية الجريدة الرسمية (الكويت اليوم) عن مصر وجهادها ، وعلما أصدق ما كتبت في حياتي من مقالات ، وأمر بأن تدعو الصحيفة الرسمية الى اكتاب لمصر كان سمو الامير الحاكم العام وأعضاء أسرة الصباح في مقدمة المتبرعين ، وأخذت الجريدة الرسمية تنشر اسم كل متبرع أسابيع بعد أسابيع حتى كاد الاكتاب لمصر يتجاوز من الجنيهات المليون .

وكنت مريضا في يوم من أيام ذلك الاعتداء ، وتفضل الأمير بزيارتي والبهجة على سيماء والفرحة تنطلق من ثناياه ، فقد استمع الى انذار (أختنا العودة) — على حد قوله — الانجليز والفرنسيين ، أي انذار روسيا للمعتدين ، جاء يعودني مشكورا وينقل هذا النبأ العظيم ، وهو نبأ ملأ قلب هذا الشيخ الكريم بكل جليل وجميل

أنت تحب الشيخ صباح الاحمد ولا تخشاه وأنت تلقاه ولا تنساه وأنت تعمل معه دون أن تتملقه أو ترضاه أنت في صحبة هذا الشيخ الشاب يغيب عن حسبك سلطان الامير ،

ويحجب عنك أدبه شارات الامارة ووجهها الخطير

الشيخ صباح صديق حبيب ، وغاية ما يرضى الشيخ أن تغفله
أميرا وتراه دائما الصديق الحبيب ***
وهو حقا صديق حبيب ***

لقد كان الاعتداء الثلاثي حادثا كشف عن مقام العروبة في قلوب
الكويتيين .. كان محنة أبرزت رجولية الكويت وأهل الكويت ،
وأبان عن نفسية قوم أحرار لا ينامون على الضيم ، ولا يرضون
الذل ولا يقبلون الأخ منهم أن يهون ولو كلفهم الامر ما يطيقون
ومالا يطيقون

أغلقت متاجرهم دون الانجليز والفرنسيين ***
وعطلت دوائر الحكومة احتجاجا وأصبحت صحيفتها الرسمية
دينادنا لجهاد مصر ، ووزعوها على المواطنين بالمجان ***
 ووضع الكويتيون على سياراتهم علم الجمهورية المصرية تأييدا
لجهاد مصر واعلانا بالتضامن معها فيما هي فيه من محنة
وبلاء ***

وحطم عين من كبار عيونهم الراديو حين زعمت لندن أن
بور سعيد اثرت الرضوخ والتسليم ***
وسارت المظاهرات في شوارع الكويت تهتف لمصر بالحياة
وتدعو بسقوط المعتدين ، وشارك في هذه المظاهرة كل عربي
يقطن الكويت ، بل ومضت فتيات المدارس يشاركن في المظاهرات

وإعلان الاحتجاج ، وكان ذلك منهم عملاً جريئاً ، فمشاركة البنت
في عمل عام يجافى للعرف والتقاليد

والكنهن فعلمن ذلك ، ولم يغضب أب أو عم أو خال !
وكم حارت في عيني الدموع لا تفيض ولا تغيض وأنا أرى كل
هذا الايثار لوطني المجاهد الجريح !
لعل صاحبي الأديب يعرف الآن لماذا أتحدث عن الكويتيين في
مجالس القاهرة كأني عاشق ولهان ؟ !

وبودي ألا يفوت مواطني أن للكويت وضعاً سياسياً دقيقاً ،
وأنة مربوط بميثاق مع الانجليز ، وأنه بالرغم من هذا الرباط ،
فان القوم في محنتنا تهاؤوا لمشاركتنا في جميع النتائج ، وتعنى
المشاركة هنا فرض الاحتلال على بلادهم ، واضطراباً في تصريف
النفط ، وغير ذلك من شجون يحزن المرء لو وقع شيء منها على
هذا البلد الطيب الكريم

ولا أحب أن يعيب أحد على الكويتيين أن تكون بينهم وبين
الانجليز معاهدة تفرض معاونة أهل الكويت اذا هوجمت بلادهم
من هنا أو هناك ، فالكويت اليوم محط أنظار الجيرة والأقواء له
فاغرة ، وتدعى ايران أنه جزء منها ، ويراه العراق الواء من ألويته ،
وغيرهما من الجيران يعتبره بطناً من البطون ؟ !

ولا يغرى هؤلاء جميعاً بالكويت إلا نظرتهم المادية اليه
تراه انجلترا آخر بنك لها خارج انجلترا ، ويريده الآخرون أول

بنك لهم خارج بلادهم !!

إذا تمكن العرب من تحقيق وحدتهم السياسية الشاملة الجامعة المانعة بحيث يستطيعون ضمان حرية الكويت وسلطانه ، والذود عنه إذا طمع فيه طامع ، حق لنا أن نعيب على الكويت أن يمضي بوله بالانجليز رباط ... أما دون ذلك فليس للكويتيين غير هذا الرباط ؟ !

هذا رأى لا يعجب النعامة ، وما أكثر ماتضم بلادنا من نعام ! .. وماذا كان موقفنا نحن المصريين وأولادنا وأخوتنا يجابهون الموت في الميدان ؟

مارأيت المصريين عسبة ، ولا قلوبهم واحدة ، ولا أنفسهم متجاوبة إلا في أيام ذلك الامتحان ...

ويبدو أنه لا بد أن تكون بلادنا في محنة دائمة حتى يبقى المصريون خارج بلادهم أخوة ، موحدة صفوفهم ، لا يأكل بعضهم بعضا ، ولا يغتاب بعضهم بعضا ، ولا ينقص بعضهم من قدر بعض ؟ 1 ..

ما عجبت لشيء عجبى لنا ونحن خارج بلادنا ! كأننا سمك ! الشاطر من يلتهم صاحبه ... الشاطر من يؤدى موطنه .. الشاطر من يهدم بيت أخيه ويقف على أطلاله ! ...

انتشر ولد من أولادنا الذين تخرجوا في كلية الآداب ، وكان يعمل مدرسا في مدرسة كويتية ابتدائية ... أقول انتشر كما

يتنشر الوباء الخطير ، يطلق لسانه في كل مصرى كبير ... هذا
مغضوب عليه ! وهذا جهول ! وهذا خارج في التطهير !!
وعجبت للفتى الصغير ! ما حظّه لو صدق الكويتيون قالة
السوء التى يزعمها في مواطنيه الكبار ؟ فلن يكون رئيس البعثة
التعليمية أو الطبية ، ولن يكون بحال خيرا فى المالية أو
المطبوعات !! ..

اننا فى خارج بلادنا سمك .. ويستوى فى ذلك من سمت
مراكرهم أو هانت .. العلماء منهم والجهلاء سواء ... اننا
نعيش فى خارج بلادنا على دغل ، النسيمة رائدنا ، والدم قاعدة
رسالتنا ، والهدم وسيلتنا للحياة والبقاء ...

رجل واحد راقت الى صحبته ، فانه رسول لوطنه جدير بحمل
الرسالة ، قمين بتقدير الوطن واكبار المواطنين ... عبد المجيد
منصفى رئيس البعثة التعليمية فى الكويت ...

ما سمعته قط يقول الا صدقا ولا ينطق الا حقا ، ثم هو رجل
شهم تجده فى الشدة والضيق ، وتراه حفيا بكل مواطن تنزل به
محنة أو قصيبه غاشية من قريب أو بعيد

انى أحنى الرأس دائما لمن يؤمن بحق وطنه عليه ، وما انجنت
رأسى قط الا لمن يعرف كيفه يرفع رأس مواطنيه ...

لقد كنا - نحن السمك - موضع النقد الشديد من اخواننا
الكويتيين ، اذ ساءهم أن ينهش بعضنا بعضا ونحن من بلد يدعو

زعيمه الى «الوحدة» والتشامش ونشر السلام والتمكين
للصفاء من «القلوب»
وحتى في تدمير بعضنا بعضا لم نكن منطقيين !

انى أعلم أن السمك الكبير هو الذى يأكل السمك الصغير ،
فكيف يحاول السردين أن يلتهم الحيتان ؟ !! ..
لسنا سمكا في الكويت فقط ... «اتنا سمك في كل مكان
خارج بلادنا ، ولست في ذلك مغاليا أو مدعيا بل هى الحقيقة
للأسف الشديد ...»

أحمد الله أنى قضيت في الكويت سنتين ولم أحسب على
«الحيتان أو على السردين ! ...»

ما أكثر ما تنسى أن هدم الاكفاء النابغين هو في «الحق» تقويض
للسدود العاليات في حياة الأمم والشعوب ...
ان فينا - نحن المصريين - كثيرا من الفضائل الخلقية والصفات
الرفيعة النادرة ، بيد أننا حين نغادر بلادنا نتركها خلفنا في الموانى
والمطارات ؟ ! ..

لا يعنى حديثى عن الكويت وأهل الكويت حديث «العاشق»
«الولهان» ، لا يعنى هذا أن المجتمع الكويتى برأ من كل تقيصة
أو خلا ناسه من ارتكاب الهنات ، فقد جل من تنزهت نفسه عن
انتقاص أو ترفع عن الهفوات ، بيد أن المشاهد في سيرة الكويتيين
أن من يكبو منهم أو ينزل عن طبعهم وخليقتهم ، انما هو في

الواقع غير كويتي أنزح إلى بلادهم من هنا وهناك ، وأصبح يحكم الزمن - وقد لا يزيد عن عشر سنوات - يحمل الجنسية الكويتية ، وليست هذه أضالة في الجنسية تجعله محسوباً على الكويتيين وهو يأثم بالفعل والقول ويعطى صورة غير صحيحة عن أبناء البلاد

فاذا وجدت بعد ذلك كويتياً أصيلاً فرغت جعبته من خلائق مواطنيه ، فليس ذلك أمراً غريباً في أى مجتمع ، فكل مجتمع شواذ ، والشواذ في الكويتيين قلة لا يقام لها حساب أما الكويتيون الذين عشت معهم وخبرتهم ، فهم من أقرب الناس إلى الاكتمال ، كلمتهم وثيقة واجبة الاحترام أما قلوبهم شيء يفوق حد الخيال ... لسانهم عف ... أديهم جم ... يغلب على مجالسهم الجدل ، والاعتدال في الرأي ، قلما يهتف ولا حسد منهم أو يعلن عن سروره بحركات من اليد واللسان ، لا يعرفون الراحة ، بل الحياة عندهم عمل ، بل العمل في ضمائرهم عبادة واجبة الأداء

سيعجب بعض مواطني من هذه الصورة التي أرسمها لأهل الكويت ، فقد زار القاهرة آلاف من الكويتيين ، ورآهم المصريون وهم يأخذون بحياتهم مأخذاً تعاماً طرياً ، فيه متاع وأى متاع ، ثم اذا أصبحوا من اللهو الخفيف أو الثقليل وتهياًوا للجد والعمل لم يرتبوا أمراً مع مصري إلا وثقوه باتفاق مكتوب

قد يسأل مواطني : أين عبادتهم للعمل التي تحدثنا عنها
والقوم يلهون بلا حساب ؟
وأين كلمة الشرف التي يقولونها فإذا هي ميثاق وهم لا يمشون
في معاملاتهم إلا في أضواء اتفاق مكتوب ؟

الصحيح أن الكويتيين يؤمنون بحكمة من قال : ان ساعة
لربك وساعة لقلبك .

حياة الكويتيين في بلادهم جد ثقل واجتهاد في قضاء الأمور ،
والتفات كامل للمصلحة ، وعناية فائقة بالعمل ، لا يشغلهم عن
السعي في سبيل الرزق الوفير شاغل ، فإذا جمعوا وطرحوا ،
وعرفوا مكاسبهم — وهي عادة شيء خيالي أو شيء قريب من
الخيال — رءوا أن لأنفسهم عليهم حقا ، وأن واجبهم أن يبسطوا
لذواتهم فرص الحياة الناعمة في أي مكان يختارونه خارج
البلاد !!

وسوف يبطل عجب مواطني إذا علموا بالمآسى التي حدثت
بيننا وبين الكويتيين اعتمادا على كلمة الشرف التي كان يظن أهل
الكويت أنها سارية المفعول في أي مكان ؟ ..

انهم — أقصد الكويتيين — لا يتفقون على عمل في بلادنا
إلا بوثيقة مكتوبة ، وهم معذورون ، فقد وافق أحدهم على
استيراد آلاف الأحذية من مصر ، فوصلت الصناديق إلى الكويت ،
يحمل نصفها أحذية والنصف الثاني قوالب من طوب ؟ ! ...

ودفع أحدهم آلاف الدولارات لشراء أثاث مصنوع في مصر
له رسوم وأوصاف ، فأرسل له أثاث آخر لا علاقة له بما اتفق
عليه من رسوم وأوصاف ! ...

وتعهد كويتي لدائرة الاسكان بتوريد مئات من الحجرات
ووقع عقدا مع حكومة الكويت التزم فيه بغرامة فادحة ان تأخر
في التوريد بعن ستة أشهر ، ورقض الرجل أن يعامل الهند أو
ألمانيا أو اليابان وفضل مصر لأنها كانت في حاجة الى الصعب
من العملات ، فخلا به أصدقاءه المصريون ، وأرسلوا له بعد
سنة ونصف سنة ... العينات ؟ ! أما الأثاث كله فالفاسر وجده
الذي يحدد الميعاد ؟ ؟ ودفع الرجل الغرامات ...

وفي سبيل مصر لقي عشاقها المتعصب ، بيد أن الكويتيين
لا يعرفون العشق الحرام ! ...

ومنذ ذلك التاريخ والتصدير للكويت مختل الميزان ...

منا من لا يفرق بين الكسب الحلال والكسب الحرام ...
وأنزعم مع ذلك أن بعض الإجراءات التصدير في حاجة الى مراجعة ،
وتخفيف ما فيها من عوائق وعقبات حتى يستقيم النشاط التجاري
مع الكويت ، فالكويت سوق لنا فيها أنصار وصحاب ، فضلا
عن أنها سوق رائجة ولا ينافسها في مثل هذا الرواج سوق
عربية أخرى من سائر الأسواق ...

أنا رجل منظم — بكسر الظاء — غير منظم — بفتحها — !!
غير منظم في أكل أمر خاص ، وأحسن التنظيم في كل شأن
عام

بدمأت حياتي (كاتب تملئ) في قصر العيني ، فلم أطلق البقاء
في الوظيفة لأنها روتينية ليس فيها تنظيم أو خلق أو ابتكار
ثم عينت سكرتيراً لاتحاد الجامعة ، فكانت وظيفة تتفق وذوقى
في مطالع الشباب ، وتلاءم وفهمي لنشاط الاتحاد ، اذ كنت
عضواً منتخباً فيه دورتين متتاليتين ، لذلك نظمت لتلك
الوظيفة القواعد والأصول بحس الفاهم للمحيط الذى يعمل
فيه ، الواعى للعمل الذى نيط به

وبعد أربع سنوات من أداء هذه المهمة ، رأيتنى أروح وأجىء
بكسائر الموظفين ، فانتقلت الى وظيفة المعيد في كلية الآداب
أنه لا أطيق الروتين

وبقيت في معهد الصحافة بكلية الآداب ثلاثة عشر عاماً بين
معيد وأستاذ أنظم فيه وأديره ، وألقى المحاضرات ، وأؤلف الكتب
وأنشر المقالات وأذيع في شتى الاذاعات كنت غارقاً في البحث
والدريس كل هذه السنوات .

وحتى هذه الوظيفة الجليلة كتبت أبعضها حين أرايتنى قد فرغت
من كل جديد وأصبحت أكرر التلاميذى ماسبق أن قلته بالأمس
لهم ، وقد تحايلت على التبرم بها والسخط عليها بالاجازات
العلمية ، في أوروبا مرتين ، وفي أمريكا مرة ، وفي الشرق العربى

عدة مرات ، فاذا عدت ، عدت بجديد . يربطنى بوظيفتى العتيدة
ويشدنى اليها شداً ويفسح لى مجال التنظيم والابتكار ، ولولا
الاجازات العلمية لما استقر حالى فى كلية الآداب

وذهبت الى جدة ، وساهمت فى انشاء أكبر مطبعة فى المملكة ،
وأشرفت على اصدار أول مجلة علمية أدبية سياسية مستكملة
كل عناصر الصحيفة المشالية ، فاذا هدرت المطبعة ، ونشرت
الصحيفة على الناس ، ولقيت الزواج المأمول ، أحسست أننى لم
أعد مستشاراً للطباعة والصحافة فى تلك المؤسسة ، بل أصبحت
موظفاً كبيراً يروح اليها ويحىء منها كأي موظف كبير ، فعدت
الى القاهرة دون أن أدري ما ينتظرنى فيها من شئون وشجون

أعادنى الفراغ من التنظيم والروتين الى وطنى ، وأنا رجل
متحرك ، الاستقرار يزحم عقله بالصدأ ويخلف فيه شعوراً بالموت
البيطىء !

وهنا فى الكويت — وقد طابت نفسى واستراح صدرى — كان
يرجى أن يطول عهدي بهذا البلد الحبيب

كنت — فى الواقع — قد أدت ما يؤديه الخير المنسوب
لعمل هام ومفيد ، وارتاح صدرى حين ختمت السنة الثانية
بالمشاركة فى مراجعة المذكرة التفسيرية الخاصة بقانون المطبوعات
والتي وضعها القاضى المصرى النابه عماد الدين الدكرورى ، وهى
مذكرة تبسط لمن لم يفهم ، أو أراد ألا يفهم ، المعنى السامى
الرفيع الذى حدا بأصحاب الشأن الى اصدار هذا القانون

ثم ارتاح صدرى مرة ثانية حين أخذت فكرة المجلة العربى -
طريقها الى التنفيذ ، وجاءت المقالات تترى من كل صقع ،
وروجعت ونوقشت وبدأ أن اقتراحى بإنشاء هذه المجلة قد
أصبح حقيقة ملموسة ، حينئذ رأيت أن أعود ، وإن حرمت مواليد
الصحيفة ، واحتفلت بذلك وأنا بعيد احتفال السعيد الذى ساهم
بقسط فى عمل جليل

كان المصريون فى الكويت عدة مئات ، فى مقدمتهم أعلام لهم
فى وطنهم شأن وشأو كاللكتور سعيد عبده ، وهو الأستاذ
الجامعى والطبيب الكبير والأديب المعروف ، وكان الناس يخلطون
بينى وبينه ، ولم أكره قط أن يختلط الأمر على الناس ، فقد كان
الرجل يشرف وطنه فيما يصنعه للكويت

ليس فى مقدورى أن أذكر مواطنى الذين خدموا هذا البلد ،
وليس هذا الفصل للحديث عنهم ، إنما هذه ذكريات عن الكويت
وأهل الكويت ، ولا يجىء اسم مصرى إلا إذا فرض مقتضى
الحال ذكر هؤلاء المواطنين

وعرفت فى الكويت من الشيوخ الصديق الحبيب الشيخ
خالد العبد الله رئيس دائرتى الجمارك والميناء وابن الحاكم العام ،
وهو شاب دمث الخلق ، سخى لا تعرف يسراه ما أعطت يمناه ،
لا يفزع اليه قريب أو غريب إلا ومسح ضيقه على طريقته التى
لا يمكن لاحد أن يعرفها ، فذلك سر الرجل الحريص الذى يعمل

بحكمة نبينا العظيم حين يقول « ابق سر من أحسنت اليه » ...
وعرفت الشيخ جابر العلي ، وهو رجل ذكى فيه نباهة ولماحة ،
ومن طبعه الكرم وحسن لقاء الناس ، وهو قارئ يهضم ما يقرأ
في يسر وانتباه

وراقني أن أتعرف على الشيخ جابر الأحمد ، وهو شيخ
انعقد الاجماع على رجوليته ، وفرضت مهابته الاحترام على
الجميع ، ذكى رقيق لا يفوته واجب نحو ربه ، والله بالله صلات
المؤمنين الصالحين ، وهو ابن الحاكم العام السابق ، وهو يلى
اليوم دوائر الحسبة والمال ، ومنذ ولى هذه الناصب استقام الأمر
في المدخول والمصروف ، وعرفت الضبط والربط ، وبهذا وبغيره
من صفات الانسان وجد الشيخ جابر الأحمد الصباح مكانه في
قلوب الناس

وعرفت من رجال الإدارة والكياسة ، مدير الشؤون الاجتماعية
صديقى حمد الرجيب ، وهو مفتن بطبعه وحسنه ، درس في
مصر ، يجيد العزف ويخلق في اللحن ، ويعمل معظم الوقت في
دائرة الشؤون ، لا يفرغ منها الا ليعود اليها ، ويعجبني حمد
الرجيب حين يرى خدمة بلاده في العمل المنتج المفيد ، لا في
الجمعجة التي تصدر عن البعض دون وعى أو تفكير

ومن شباب الكويت الذين سرتنى معرفتهم ، وراقني وجودهم
في مناصب الدولة ، السيد أحمد عمر والسيد حمد اليوسف

بالمالية ، وعبد المحسن القطان في الكهرباء والماء ، وعبد اللطيف
التويني في الأمن الطام ، وعلى المتروك في الاسكان ورسمي
الرجل الرقيق المتهذب وعبد الرزاق البصير في المطبوعات
والنشر ، وعبد العزيز الصرعاوي في الشئون

ولم أسعد بالتعرف الى كل أدباء الكويت وهم نخبة من
شبابهم وصفوة من رجالهم ، قرأت لهم ما أرضاني وكشف لي
عن مواهب تسر خاطر كل عربي ، وفي مقدمتهم الأساتذة عبد الله
زكريا وفاضل خلف وسيف الشمالان ومحمود توفيق أحمد
وغيرهم كثير

ليس الكويتيون أهل نواص وأعتاب ، انهم قوم مؤمنون
بالواقع ، خاضعون للمكتوب ، لا يقتلهم الحزن ولا يستخف بهم
الطرب ، ولهم في حياتهم الحكم والأمثال البديعة الرائعة ، وأجمل
ما واجهني وأنا في صحبة مدير المطبوعات في طريقنا الى سمو
الحاكم العام الشيخ عبد الله السالم الصباح أن قرأت حكمة على
باب قصره تقول (لو دامت لغيرك ما وصلت اليك)

و كنت أظن أن هذه الحكمة قالها الأمير الذي قدموني اليه ،
فهو رجل متواضع لهم تغير الامارة من طبعه العربي الأصيل ، ولم
يؤثر عنه التفات الى مظهر أو رغبة في دعاية أو حرص على منصب
فكل ذلك عنده عرض من أعراض الدنيا والرجل في غنية عن الدنيا
وما فيها من متع وما وراءها من خبايا وأسرار

لم تكن الحكمة لسدو الحاكم العام ، بل الحكمة منحوتة على
القصر منذ قديم

ونحن في الواقع تتجاوز الحق ونسرف في التجاوز حين نسمى
المكان الرسمي للحاكم العام قصرا ، فهو شيء يشبه البيوت
القديمة في حي الأزهر أو الكحكيين ، وهناك ألف بيت في الكويت
يمكن أن يطلق عليها لفظ القصر أما المكان الذي يجلس فيه
الحاكم العام فلا يمكن أن يعتبر في ذمتي قصرا أو يحسب على
المنيف من الدور والقصور

وأرجو ألا ترهبك كلمة الحاكم العام أو قولهم سمو الأمير ،
فكل هذه ألفاظ ليس لها بين الأمير ومواطنيه هذا المدلول الذي
يدور في أذهان من قست عليهم نظم الحكم من ملك وأمير ،
فالحاكم العام يلقاك أي وقت تشاء ، في السادسة صباحا أو في
الظهر أو في أية ساعة من نهار ، فليس البابه ستور وليس لمجلسه
قواعد أو أي لون من ألوان الابهة والظهور

وهكذا تقوم العلاقة بين الكويتيين وجميع شيوخهم وفي مقدمتهم
الشيخ الكبير ، والغريب لا يستطيع أن يفرق في أية جلسة عامة
أو خاصة بين شيوخ الكويت ومواطنيهم لما يسود مجالسهم من
روح المودة والألفة ، وهي سمات المجتمع الكويتي في كل وضع
وفي كل حين

والحكومة الكويتية تؤثر مواطنيها ايثارا لم يعرف له مثيل ،

ولا يمكن بحال أن يؤذى كويتى من أجل غريب ، ولا يعنى هذا أن يضيع على الغريب حقه أو يساء الشرفه وكرامته ، فالغريب محصن اذا كان له عند كويتى التزامات وحقوق ، ولكن الحكومة لا تردد فى أن ترحلك بعد ساعات ان أسأت الى كويتى — مهما يهن قدره — بقول خفيف أو قول ثقيل ؟ ...

ان المثل الحى على قدرة الانسان فى تحضير الصحراء تجده فى الكويت ، اذ شجر القوم شوارعهم بعد أن شقوها فى قلب الرمال ، وزفتوها كما يقولون ! ومضوا بها فى نعومة الشعابين وأحالوا ماء الخليج الأجاج الى شراب عذب مستساغ وجعلوا بيوتهم فى حمارة القيط جنة بهوائها المنعش الرطيب ، وعاشوا كما يجب أن يعيش من يحسن التحدث بنعمة ربه ولا يبخل بالاعلان عنها علامة الرضاء والعرفان بالجميل ...

وأنت تزور الكويت فتذهلك حركة الهدم والبناء ، وكم مرة زرت الكويت فتتهت فى شوارعها ، وتهت فى ميادينها ، مع أننى لا أغيب عن الكويت الا شهورا قليلة ولى علم بكل حارة وزقاق ، ذلك أن القوم يخلقون فى مدينتهم كل يوم جديدا ويجمالونها بتجميلا ويشيدون العمارات ذات الطوابق الكثيرة التى تبلغ عشرة طوابق أحيانا ، وفى شارع الجهرة اليوم قامت عشرات العماثر ، وفيه أكثر من ثلاثة آلاف حانوت جديد ، فضلا عن آلاف الفيلاات الحديثة التى أنشئت فى ضواحي الكويت ، فى

السلامية والفنطاس والفحيجيل وفي غيرها من الاطراف
وليس في الكويتيين تزميت ولا تعصب ، لا في الدين ، ولا في
النظر الى تناول الحياة . . ان المسيحيين في الكويت تلقاهم
صدور الكويتيين الرحبية ، وتأنس اليهم تفوسهم السمحة ، وبلغ
التسامح من الكويتيين أن أقيمت على أرض الحكومة كنيسة
نالت من اعانات الدولة قدرا غير يسير حتى بدت من أكبر وأفخم
الكنائس في محيط الوطن العربي الكبير

وفي الكويت عدة سينمات كأفخم ما عرفنا من دور السينما في
العالم ، واحداها تتسع لعدة آلاف مشاهد ، ذات طوابق تبلغ
سبعة طوابق ، وهى شىء جديد في مربعنا العربى وليس لها
نظير الا في نيويورك

ويكاد لا يكون في الكويت فتاة أمية ، فكل بنت تتعلم ، وهن
وان كن يحتطن بخوف قالة السوء ، ويحافظن على العباءة في
الطريق ، الا أنهن في بيوتهن ، وفي مدارسهن يأخذن الحياة كما
تأخذها البنت في البلاد المتحضرة ، واعيات ، فاهمات حقوقهن ،
قادات على تناول الأمور في فراسة المرأة التى تزين عشا بنتا
أو زوجة أو أما ، ولن تضيرها عباءة الطريق ، ولن يزعجها
التحفظ الشديد أو الانصات بالموودة الى أى تقليد قديم . . .

وجو الكويت شىء عجيب ! . . .
في الشتاء وما أقصره ! قد تنخفض درجة الحرارة في الليل الى

مادون الصفر ، وقد ترتفع في النهار الى درجات ثلاثين !
وفي الصيف ، وما أطوله ! يكاد يحس المرء حرارة الشمس
قبل طلوع الفجر ! ! ويكاد يظنها في السمات حين تبرغ من بعيد !
ويظنها في السمات حتى تغيب !

والرطوبة من مقومات الجو في الكويت ، هي معك في جسمك
وأيامك وصدرك ! .. ومن نعم الله أن المقيمين يعتادونها ، والا
كنتم أنفاسهم وعزت عليهم الحياة ، ودمرت الأعصابهم تدميرًا ..
ومع هذا الجو الخائق المرطوب ، نجد أعصاب الكويتيين
مستريحة ، لا تند منهم عبارة خارجة ، ولا تفلت كلمة نابية ، ولا
يصدر عنهم تصرف معيب

أمضيت سنتين في الكويت ، دخلت فيها بيوت الأمراء وبيوت
الخاصة والعامة ، ومضيت في الشوارع والحواري والأزقة ، فلم
أشهد خلافا في البيوت ، ولا معركة في الشوارع ، وأدهشني أن
يعيش مجتمع بلا معارك .. كنت أريد أن أرى معركة واحدة
وأدرس فيها على الأقل الطريقة والاسلوب !!

ورأيت ازدحاما من بعيد ، وفهمت أنه خلاف بين اثنين شديدا ،
فأقبلت اقبال المستطلع الذي عثر على شيء فريد ، بيد أنني رجعت
في خيبة تتعثر فقد كانت معركة بين غريبين في الكويت ؟ !
وقلما تنتهي أية خصومة بين كويتيين الى المحكمة ، فذلك شيء
يخالف العرف المأثور عنهم ، وحدثني في هذا الشأن صاحب منهم

فقال : ان الاقدمين أقاموا تمثالين على باب المحكمة لتقاضيين
مزقت ثيابيهما ، أحدهما للفائز وثنانيهما للخسران ثم قال : ونحن
قوم لا نكشف عوراتنا ، ونحب أن تكون ثيابنا دائما نظيفة
بيضاء غير مهلهلة ؟ ! ...

ولم أشهد في الكويت جنازة ... ويبدو أنه لا يوجد للموت
هناك طقوس ، فقد كنت أسمع في مطلع الصبح أن فلانا مات ،
فاذا سألت عن موعد الجنازة ، قيل : لقد دفناه !
قالها صاحبى فى الساعة صباحا ، ولا أدري كيف مات فى
الصبح ودفنوه ونحن لم نبدأ بعد الصباح ؟ !

وحضرت دفن والد صديق ، ورأيت مقابرهم منشورة فى
صفوف ، وليس عليها علامة من العلامات ، ولا تدرى من
الساكنون هذه الحفر ، فان حفرة الأمير بجانب حفرة الخفير ...
الجميع سواسية عند الموت ، ولا عجب فهم سواء فى الحياة ،
وانهم لقريبون من التسوية فى الدنيا والآخرة ، وانه لمجتمع
فريد ، أمواتا وأحياء ! ...

الفرق بيننا وبينهم ، أن الوثنية لا تزال تمدنا بمعاييرها ونحن
نودع موتانا ، الموت عندهم حق ، وعندنا مظهر وكارثة ، فعندهم
يلفون فقيدهم فى خرقة ، وفقيدنا نكفنه بالبقتة والشاهى ، ونغسله بماء
الورد والعطور ، ونجمل نعشه بالحرير المزركشة كأنه ذاهب
لحفلة عرس أو حفلة كوكتيل ! ونمضى من خلفه ومن قدامه ،

يسبقه حملة القماقم وحملة الورود ، وقد تؤجر له الموسيقى
والبنود ، ثم نعود فنفاخر بالصيوان حيث يلتقى الصاحب على
القهوة وسيرة الناس !

الموت عندنا كارثة لأنه باهظ التكاليف ...

وأفراحهم كأحزانهم ، شيء سريع خاطف ، الا في بعض أوساط
الخاصة حيث البذخ ، والاعلان عن هذا البذخ يشتى الاساليب .
.... وكل الناس مدعرون الى ليلة العرس بلا بطاقة أو
رسالة أو حديث تليفون !

هم مجاملون في الهناءة مجاملتهم في العزاء
الكويتيون أهل اقتصاد في أفراحهم وأحزانهم ، وهم في الحق
مقتصدون ، لا يبذرون ، حتى انهم يبدون للغريب بخلاء حريصين
في غير موجب للحرص وهم أصحاب ملايين !

ومنهم بخلاء ، بخلاء الى أقصى الحدود ، ومنهم جوادون جودا
ما بعده جود ، وأكثرهم وسط ، الحذر يغلب على طبعهم ، والحذر
صفة دعت اليها كتب السماء ونصح بها الرسل والأنبياء
والكويتيون مؤمنون ولهم آذان مصغية لكل نصح مفيد ! ...
كان يزورنى في الكويت ، أعيان الكويت ، أسرة الحميضى ،
السيد يوسف الحميضى عميد الأسرة وأولاده ، وهو رجل وقور ،
قارئ ، حلو الحديث ، يحب مصر ويؤثرها على بلاد الدنيا ،
وأسرة مساعد الصالح ، والمطوع ، وهما فرعان من أسرة القناعى .

بعيدة الصيت ، وأسرة الغانم واسعة الثراء والجاه قديمة قدم الكويت ، وأسرة مهدي حبيب ، وهو رجل وسيم كريم ، مجاهد ، صنع تاريخه ، بجهد المكافح الذي افترش يوما أديم الأرض ، وتبلغ بالتمر ، وكبا في جهاده أكثر من مرة ، ثم أنصفه الله فاذا هو في الصدر عنوان المجاهدين ، ثم أسرة الملا وفيها الكثيرون من الشباب الغرالميامين

عشرات من الرجال نشأت بينى وبينهم (معرفة) وسمت هذه (المعرفة) على مر الزمن ، في الكويت وفي القاهرة ، حتى بلغت مرتبة الصداقة التي تحس فيها الصديق الحبيب ، الوفي في الشدة والرخاء ، الشهم الذي تجده دون أن تدعوه أو تفزع إليه . .

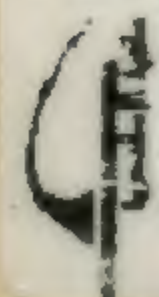
هذه ملامح المجتمع في تلك البقعة الصغيرة التي دللوا فسموها الكويت ، وإنها لجديرة بالذكر والتدليل ، لأنها شيء أصيل في سيرة الأعراب حين يحسب الفضل ويوزن الخير عبر الاجيال والسنين

تحت الطبع

- ١ - روز اليوسف (سيرة وصحيفة)
 - ٢ - جريدة الأهرام (تاريخ وفن)
 - ٣ - زعيم من الجزيرة
 - ٤ - ألفاء ياء الطباعة
 - ٥ - ثلاث قصص في كتاب :
- جيجي بنت الحلاق - صديق العائلة - ٣٣ شارع أبو الجهاد

الناشر
سجل العرب ت ٤٩٩٩٩
مكتبة الآداب ت ٤٢٧٧٧

١٩٦٠

 Bibliotheca Alexandrina



0681861

٢٠